سلسلة تصحيح المفاهيم ٦

الوحي والإنسان

قراءة معرفية

أ. د. محمد السيد الجليند

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

الوحى والإنسان

سلسلة تصحيح المفاهيم ٦

الوحي والإنسان

قراءة معرفية

الأستاذ الدكتور

محمد السيد الجليند

أستاذ الفلسفة الإسلامية
دار العلوم – جامعة القاهرة

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

الكتـــاب : الوحى والإنسان

المؤلـــف : أ.د. محمد السيد الجليند

رقم الإيداع: ٢٠٠١/١٠٩٤٢

الترقيم الدولى: ISBN
977-303-366-x

تاريخ النشر : ٢٠٠٢م

الناشـــر : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة :

٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦

☎ ٦٣٦٢٥٦٢ — فاكس/ ٦٢٧٤٠٢٨

المكتبة :

١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المطابع :

مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)
☎ ٠١٥/٣٦٢٧٧٧

www. alinkya.com/kebaa
e-mail: qabaa@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمــد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله مــن شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

هــذا هو العدد السادس من سلسلة تصحيح المفاهيم أردت فيه أن أوضــح طبيعة العلاقة بين الوحى والإنسان، بين الوحى والكون، بين الوحى والعلم خلال قراءة معرفية نستوضح خلالها منهج القرآن الكريم فى بناء الموقف المعرفى المؤسس على عالم الشهادة بعناصره الحســية يســتنبط منه ويستنبط به مبدأ الضرورة العقلية لينطلق منه لتأسيس ما يسمى بقوانين المعرفة.

وفى هذا الموقف يؤكد الوحى على مسئولية الإنسان عن وحدة المعــرفة وتحصيل أهدافها ومقاصدها حيث يكون الإنسان هو الذات العارفــة، وهــو المالك لوسائل المعرفة وهو باعتباره جزءً من عالم الشــهادة – موضــوع لهــذه المعرفة وحين تتوحد عناصر الموقف المعرفى فى الإنسان تتحدد مسئوليته عن تحقيق أهداف هذه المعرفة ومســئوليته عن حسن توظيف موضوعها وأدواتها ليحسن فى النهاية تحقيــق الأهداف وتحصيل المقاصد، حيث يقوده اليقين بعالم الشهادة إلى الإيمــان بعــالم الغيب، ويقوده اليقين المعرفى بأن من يخلق من العدم هو أقدر على أن يعيد الخلق مرة ثانية وحين يقرأ معنى العناية

الإلهيــة الشــائعة فى كــل أفراد عالم الشهادة يؤمن أن لهذه الوجود معنى وللخالق فيه حكمة وغاية فينفى القول بالعبثية أو المصادفة.

قـال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾. وقـال سـبحانه ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

هى قراءة معرفية لعلاقة الوحى بالإنسان وموقف الإنسان من الــوحى وقضاياه، هى قراءة لعلاقة الوحى بالعلم وهى قراءة لمطلب الوحى من الإنسان فى التعرف على الكون وما فيه.

حــاولت فيها أن ابتعد عن التأنق فى الأسلوب واختيار الألفاظ لأنهــا كانت قراءة لحظية آنية بنت ظروفها العارضة، لفت انتباهى إلى أهميــة هــذه القراءة الحوار الذى كان يدور فى لقاءات الجمعية الفلســفية المصرية وما يثار فيها من مشكلات كانت تصل أحياناً إلى حــد اعتبار أن الإيمان بالغيب أمر وهمى، وأن (الله) أو كما يسمونه (بالمطــلق) أمر لا يقبل العقل الحديث عنه، إنما هى خخرافات تعوق حرية العقل والإبداع، وقد شر ذلك فى بعض الدوريات الثقافية، مما يــدل على أن هذا الموقف المعرفى يحتاج إلى تجلية بعض المسائل وتوضيح مفهوم هذه العلاقة التى قد ينكرها البعض كلية وهذا حاصل فى واقعــنا الثقافى، وقد لا يدرك طبيعتها البعض الآخر. وهذا أيضاً حاصــل فى واقعنا الثقافى. وقد يختلف البعض معنا فى هذه القراءة

وفى مضـــمونها وهــذا أمــر نتوقعه، وقد يوافقنا البعض الآخر فيما قــرأناه وقصـــدنا إليـــه. ومـــا أردت من هذا كله إلا الإصلاح، ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت. وهو حسبى ونعم الوكيل.

المؤلف

الجيزة فى

٢٨ صفر سنة ١٤٢٢ هـ
٢٢ مايو سنة ٢٠٠١م

(١)

الوحى والإنسان

قراءة تاريخية

إن قضية العقل والدين وتصور العلاقة بينهما ليست وليدة هذا العصر، ولا هى من خصوصياته، كما أنها ليست وليدة عصر معين ولا من خصوصيات أمة بعينها. إنها تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ من يوم أن دب الإنسان على ظهر الأرض.

نعم، إنها ليست من خصوصيات أمة دون أمة، ولا من خصوصيات حضارة دون حضارة، إنها أرث مشترك بين بنى الإنسان منذ وعى الإنسان وجوده، وقد تأخذ العلاقة بين الدين والعقل شكل حوار هادئ أحياناً، وقد تأخذ شكل صراع عنيف أحياناً أخرى وبالتالى فلابد أن تختلف لغة التعبير عن هذه العلاقة من أمة إلى أخرى، ومن مستوى ثقافى إلى مستوى ثقافى آخر فى داخل الحضارة المعينة حسب قرب هذه اللغة من منطق الفطرة السليمة أو بعدها عنها، فإن من مقاصد خطاب الوحى الدينى التوجه إلى الفطرة السليمة التى تتجلى أنوارها فى مظهر العقل وتجلياته المعرفية، فإن العقل فى أسمى تجلياته نور من نور الفطرة ومظهر من مظاهرها، كاشفا عنها وعن سلامتها واستعدادها لتقبل ما هو صحيح من

المعارف والعلوم ورفض كل ما هو زائف منها، كما ينبئ العقل فى الكـثير مـن أحوالـه عن العلل والأمراض التى تعترى هذه الفطرة فتحجـبها عـن تقبل الحق ومعاندته ورفضه بل محاربته، وهذا أمر معروف فى تاريخ العلاقة بين الوحى والإنسان على طول التاريخ.

إن جـذور هـذه العلاقة تمتد فى أعماق التاريخ لترتبط بأبى البشـرية آدم عـليه السـلام حيث يسجل لنا القرآن الكريم بداية هذه العلاقـة فى حوار هادئ بين الوحى والإنسان، فحين أمر الله تعالى الملائكـة بالسجود لآدم فسجدوا إلا ابليس امتنع وقال ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَـنِي مِـنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ . فكيف أسجد له وأنا أشرف منه؟ مدعيـاً شـرفه عـلى آدم لأن النار عنده أشرف من الطين، وبالقيـاس العقـلى عـند ابليس **لا يجوز أن يسجد الأشرف** للأدنى. والقصـة معـروفة بتكرار ذكرها فى القرآن الكريم، ثم أمر الله آدم وزوجـته أن يسـكنا الجنة. وحذرهما من إغواء الشيطان لهما وقال لهما إن الشيطان لكما عدو مبين.

وقـال لهمـا أن حال مقامكما فى الجنة لا يعتريكما جوع ولا عراء ولا ظمأ. ﴿**إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى**﴾ ثم أباح لهما الأكل من الجنة حيث شاء إلا شجرة واحدة نهاهما عن الأكل منها وقال لهما : لا تقربا هذه الشجرة فتكونا مـن الظالمين. وكرر القرآن الكريم تحذيره لآدم من متابعة الشيطان

وأعوانه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [طه : ١١٧].

ويسجل القرآن الكريم حالة من حالات الضعف البشرى أمام اغواء الشيطان لآدم وزوجه، فزين لهما الشيطان الأكل من الشجرة، وقال لهما : ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ • وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ • فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾. فأكل آدم من الشجرة، وعصى بذلك الأمر الإلهى كما قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ثم تاب آدم من ذنبه فتاب الله عليه ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وكما سجل القرآن الكريم معصية آدم وذنبه سجل أيضاً توبته من ذنبه وندمه على ما اقترف وأن الله تقبل منه توبته واصطفاه. قال تعالى : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢].

والقرآن الكريم يقص علينا هذه القصة فى أسلوب تربوى تعليمى ليبين لنا حالة النفس البشرية وما يعتريها من حالات الضعف فى كثير من الأحيان أمام المغريات وأمام إغواء الشيطان ووسوسته وأن ذلك لا يجوز أن يكون مدخلاً إلى حالة من اليأس أو القنوط من رحمة الله وأن باب التوبة مفتوح أمام المذنبين.

كمـــا بين لنا من جانب آخر سنة من سنن الله فى كونه تتحكم هـــذه السنة فى مسار علاقة الإنسان بوحى السماء، وتتمثل هذه السنة فى أصـــل "طـــبيعة الـــنفس البشـــرية ومن لوازمها "الضعف" أمام المغـــريات، الضـــعف أمام المثيرات، وأن أكبر عامل نعالج به هذه الحالـــة هو الاستعانة عليها بالله، ومتابعة هداه، والقرآن الكريم حين ســـجل لـــنا قصة آدم قد ختمها بهذه النهاية التى تتضمن هذا القانون العـــام الذى يحكم علاقة الإنسان بالله . قال تعالى : ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِـــلُّ وَلا يَشْـــقَى، وَمَـــنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُـــرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى، وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧].

وقـــال تعالى فى موضع آخر : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة : ٣٨]. وتكرر ذلك فى القرآن فى مواضع أخرى.

ولا نريد الخوض فى تفاصيل هذه القضية أو التعرض لإرادة الله فى ذلـــك وما الحكمة من الأمر بالسجود لآدم وامتناع إبليس عن الســـجود أو الأكـــل مـــن الشـــجرة والخروج من الجنة. فإن ذلك له

مواضــع أخــرى ، ولكن نود أن نسجل هنا بعض الملاحظات التى تعتــبر دروساً لابد أن نعيها من سرد هذه القصة وغيرها فى القرآن الكريم ومن أهمها:

١- أن الذنب أو المعصية لا ينبغى أن تكون مدعاة لليأس من رحمة الله حــتى وإن تكــررت المعصية، فإن باب التوبة مفتوح أمام المذنبين ولا ييأس مؤمن من رحمة الله أبداً.

٢- أن من لوازم النفس البشرية وخصائصها الضعف أمام المغريات وأمام عوامل الإثارة للغضب. وأن عاصمها من ذلك هو اللجوء إلى الله والالتزام بهديه.

٣- أن موقــف آدم مــن أوامر الوحى هنا لم يكن معارضة له ولا تــنكراً وإنمــا كــان مخالفة للأمر باتباع هوى النفس واستجابة لإغــواء الشيطان له. فالمعصية هنا ليست رفضا للأمر الإلهى بدعــوى أن الأمر الإلهى يعارض برهاناً عقلياً أو قياسا منطقياً وإنمــا كــانت ذنــباً اعــترف به آدم وتاب منه وتاب الله عليه فاصطفاه واجتباه وعلمه هذا القانون العام ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِــلُّ وَلا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه : ١٢٣ : ١٢٤].

ولابــد من التأكيد هنا على هذا المعنى الذى من أجله عصى آدم الأمــر الإلــهى، إنه متابعة هوى النفس وليست معارضة للوحى ولا تنكرا له ولا رفضاً ولا معاندة له.

ونحن نعلم أن فى هذه القصة بُعداً كونياً تتعلق به إرادة الحق سبحانه، فإن الأكل من الشجرة والهبوط إلى الأرض والخروج من الجنة كلها أمور ترتبت على أمر كونى إراده الحق سبحانه من وقوع هذه المعصية لكى يهبط آدم إلى الأرض ويعمرها كما قال سبحانه : ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤ : ٢٥] وهذه القضية الكونية ليست مجال حديثنا الآن. ولكن الذى ننبه إليه أن هذه المعصية كانت تسجيلاً لحالات الضعف البشرى أمام اغواء الشيطان ولم تتضمن تنكراً ولا رفضاً لأوامر الوحى.

وإذا تتبعنا مسيرة الوحى خلال تتابعه على الأنبياء، والمرسلين وحاولنا التعرف على أسباب معاندة الأمم لأنبيائهم فلا نجد لديهم حجة مقبولة فى منطق العقل وإنما نشأت معاندتهم للوحى إما لأن الوحى يطالبهم بالتخلى عما ألفوه وورثوه عن الآباء من عادات وتقاليد موروثة وعقائد مألوفة، وإما متابعة للهوى وتحصيلاً لرغائب النفوس وتحصيلاً لشهواتها.

ومن المعلوم أن نفوس بنى آدم متباينة وأهواءها متعارضة ومتنوعة ولكل عصر أهواؤه ورغباته، ولكل بيئة اجتماعية أهواؤها ورغباتها التى تنعكس فى سلوكها وعاداتها وتقاليدها وفى علاقات الأفراد والجماعات بعضهم مع بعض وهذا ما أكده القرآن الكريم فى

قولـــــه تعـــالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]. وهذا أيضاً قد أكده الواقع الاجتماعى للأمم والشعوب.

فهناك أصحاب النفوس الفرعونية الذين لا يرضون من الغير إلا الخضوع المطلق والاستسلام التام فلا يرى أتباعه إلا ما يرى هو ولا يحسّنون إلا ما جعله لهم حسناً ولا يقبّحون إلا ما يراه هو قبيحا رافعا شعار السياسة الفرعونية. ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى﴾ [غافر:٢٩].

وهـــناك أنمـــاط من البشر يحبون المال حباً جماً بحيث يكون جمـــع المـــال واكتنازه من أى طريق كان هدفاً مقصوداً لهم وغاية منشودة، بحيث يصير المال هو إلههم ومعبودهم.

وهـــناك نمط من البشر وصفه القرآن الكريم بأنه ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾.

وهناك من يطغى أن رآه استغنى. وهناك... وهناك. وكل هذه الـــنماذج البشرية إذا جاءها الوحى بما يعارض أهواءها رفعت شعار الرفض والمعارضة، فإذا أضفت إلى هذه النماذج ما تجده فى نفوس بـــنى آدم مـــن حـــب التعصب للجنس أو اللون أو المذهب والقبيلة أدركـــت الصعوبات التى واجهها الأنبياء من أصحاب هذه الأهواء. فـــإن شـــأن أهـــل الأهواء فى كل عصر معارضة أصحاب المبادئ

ومعاندتهم، فضلاً عن معارضتهم لأوامر الوحى ونواهيه مع الأنبياء والمرسلين، ومن المفيد أن نسجل هنا فى هذه العجالة بعض الملاحظات التى تستوقف الباحث فى تاريخ العلاقة بين الوحى والإنسان :

١- **الملاحظة الأولى** : إن الأنماط البشرية التى عارضت الأنبياء والمرسلين فيما مضى هى نفس النماذج البشرية التى عارضت مبادئ الإصلاح ورفضت الدعوات الإصلاحية فى العصور التالية على يد ورثة الانبياء من الدعاة والمصلحين. وهؤلاء المعارضون للوحى صنفان من الناس .

أ- أهل الأهواء وأصحاب العصبيات المختلفة.

ب- أصحاب الملك والسلطان فى كل عصر.

أ- ولقد ساق القرآن الكريم أمثلة ونماذج من المصنف الأول الذين آثروا اتباع الهوى والتعصب له، على دعوة الحق والانصياع لما جاء به الوحى، وحين تستقرئ ما قصه القرآن عن هذه النماذج وعن الأسباب التى عارضوا الرسل من أجلها تجد بينهم شبه اتفاق على هذه الأسباب التى جسدها القرآن فى متابعة الآباء وتقليدهم.

قال تعالى حاكياً عن قوم هود : ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ، قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ

كَفَـرُوا مِـنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّـي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ، أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُـلٍ مِـنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُـمْ فِـي الْخَـلْقِ بَسْـطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥-٦٩].

فـرفعوا لواء المعارضة فى وجه هذه الدعوة الصادقة وقالوا لنبى الله هود: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠].

وكذلـك كان موقف أهل مدين من نبى الله شعيب قال تعالى : ﴿يَـا قَـوْمِ اعْـبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيـزَانَ إِنِّـي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ، وَيَـاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَـا عَـلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود : ٨٤-٨٦]. فماذا كان موقفهم من هذه الدعـوة الإصـلاحية؟ لقد رفعوا لواء المعاندة والمعارضة ﴿قَالُوا يَا شُـعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

وكذلك فعل أهل ثمود مع نبي الله صالح. قال تعالى : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ، قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦١-٦٢]

وكذلك فعل بنوا اسرائيل مع نبي الله موسى قال تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ، فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ، قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ، قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٧٥-٧٨]

وهكذا تكررت هذه المواقف من نبي إلى نبي، ومن أمة إلى أمة، ونجد السبب واحداً، إنه الإلف والتعود والتعصب لما ورثوه عن جبل الآباء والأجداد، من عادات وعقائد وقعوا أسرى لها دون أن يتساءلوا حولها ليعرفوا موقعها من الصواب والخطأ، والحق والباطل.

وإنما كفاهم أنها مواريث الآباء ومقدسات الأجداد، وكان موقفهم من دعوة الرسل هو الرفض والمعاندة. وقالوا لرسلهم :

﴿إِنْ أَنـــتُمْ إِلا بَشَـــرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم : ١٠].

وقـــالوا لنبى الله شعيب : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾.

وقـــالوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعـــراف: ٨٨، ٩٠].

وقالوا لرسلهم : ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبـــراهيم : ١٣]. إنها نفس القضية تتكرر مع جميع الأنبياء، التشبث بـــالمواريث والـــتقاليد والتعصب لها، ومحاربة كل دعوة إصلاحية جديدة تحمل معها رياح التغيير والإقلاع عن هذه المواريث.

ب – أمـــا الـــنمط الثانى من المعارضين للوحى فهم أصحاب الملك والسـلطان والرياســـات الموجـــودون فى فئات كثيرة من أبناء المجـــتمعات البشرية، خاصة أصحاب النزعة الفرعونية منهم ، الذيـــن يسوسون رعاياهم تحت شعار ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى﴾ وهـــؤلاء تجدهم فى كل عصر، وفى كل طبقة اجتماعية معينة وتجدهـــم بيـــن أصحاب الحرف كما تجدهم فى طبقة المشتغلين بالعـــلم، ولكـــن أشـــدهم وطأة وأكثرهم بطشاً أصحاب السلطان السياســـى من الحكام المستبدين بشعوبهم والذين لا يرضيهم من الشعوب إلا أن يكونوا قطيعاً من الغنم حتى وإن أوردهم ساستهم

مــوارد الهــلاك والدمـــار، فلا يرضى السلطان إلا بالخضوع المطــلق، فلا يسمع بين الناس إلا صوته ولا يقبل أن يسأل عما يفعل وهم يسألون. إنه المنطق الفرعونى الذى يتكرر على مدار الــتاريخ. وغالباً ما يدور فى فلك أصحاب النفوذ فى كل مجتمع طــبقة من الذيول والاتباع أو المريدين المحبين، يجعلون همهم الأكبر تلمس مواطن رضى رئيسهم، فيكونون حيث يريد وحيث يحب ويهوى، ويتنافسون فى أن يزينوا له سوء عمله ليراه حسنا ويـــراه الأتباع مقبولاً، وهؤلاء موجودون فى كل فئة من فئات المجــتمع، ووجودهم حول السلطان الأكبر أكثر وخطرهم على الــرعية أشد قسوة من خطر السلطان نفسه، لأنهم ينطلقون فى الــبلاد يعيثون فيها فساداً باسم السلطان وفى حمايته، وكم قاست الشــعوب وذاقت مرارة الظلم والقهر من بطش هؤلاء الأتباع، ومع كثرة هؤلاء واشتداد قسوتهم يزداد إحساس الشعوب بالقهر والظلم ومن المعلوم أن نفوس بنى آدم متنوعة ومواقفهم متباينة فــإذا وجــدت شخصـــا فى أمة يعارض هذا اللون من السياسة الفرعونية، فإنك تجد بجانبه الجمهور الأعظم من الناس يؤثرون الصـــمت، ويفضـــلون الفوز باحدى الحسنيين وهى السلامة من بطـــش الســلطان، وربما ينضم إلى قافلة "المريدين" والمسبحين باسمه.

ولقد وجدنا القرآن الكريم يقص علينا سلوك هذا النمط من الناس مجسداً فى سيرة فرعون مع نبى الله موسى، وكيف زين له اتباعه سوء عمله فرآه حسناً، فادعى الألوهية، وقال لقومه : ما علمت لكم من إله غيرى. وقال لهم : أنا ربكم الأعلى.

وحين يقص القرآن علينا هذه المواقف المتعددة فإنه يختمها ببيان العواقب الوخيمة التى آلت اليها مصائر هذه الأمم الماضية لنأخذ منها العبرة ونعى دروس التاريخ فقال سبحانه فى حق قوم نوح.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣].

وقال فى سورة الشعراء : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُون، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ١١٩-١٢١].

وقال فى حق قوم عاد : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَان فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَة مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف : ٧١-٧٢].

وقـال فى سـورة الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَـةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَـرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقال فى الشعراء : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء : ١٣٩].

وقال فى حق قوم ثمود: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِـلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِـرُونَ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف ٧٥ : ٧٨]. وقـال فى سورة الحاقة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة : ٥].

وقـال فى حق قوم لوط: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَـانَتْ مِـنَ الْغَابِرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف : ٨٢-٨٤].

وقـال فى سـورة العنكبوت : ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِـيءَ بِهِـمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْـلَكَ إِلا امْـرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ، إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ

الْقَـرْيَة رِجْزًا مِنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ، وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٣-٣٥].

وقال في سورة الشعراء : ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلا عَجُوزًا فِـي الْغَابِـرِينَ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُـنْذَرِينَ، إِنَّ فِـي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٠-١٧٤].

وقـال سـبحانه وتعـالى عن مصير هؤلاء جميعاً : ﴿ فَكُلا أَخَذْنَـا بِذَنْبِه فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْه حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِه الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِـنْ كَـانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. وتأمل معى هذه الخاتمة في كل موقف ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾، أو قوله: ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أو ﴿عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أو ﴿عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهـذه كـلها تنـبيهات وإشارات لكى تعى الأمة الإسلامية الدروس وتأخذ العبرة من التاريخ .

ومـن الأمـور اللافـتة للنظر حقاً أن هذين النمطين ؛ أهل الأهواء، وأصحاب السلطان تكررت مواقفهم مع الأنبياء قديماً وتتكرر مواقفهـم مع ورثة الأنبياء فى العصور التالية، وكما أشرنا سابقاً فإن كـل نفس فيها ما فى نفس فرعون من حب العلو فى الأرض وحب الرياسة والاستكبار، فإذا وجدت من يزين لها ما تهوى، وإذا وجدت

من يعينها على تحصيل ما تحب وترغب فإنها تسارع في ذلك، وتوالى وتعادى على ذلك، خاصة إذا وجدت بين بنى قومها من هو مؤهل للقيام بهذا الدور – وما أكثرهم فى كل فئة – وعرفت كيف تستعين بهم على تحصيل رغائبها وتحقيق أحلامها، وكلما ازداد هؤلاء الاتباع تزلفا وتزيينا لها ازداد احساسها بالفرعونية وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ وعند ذلك تتحول هذه الجوقة من الاتباع إلى بؤرة لصناعة الفراعين الذين يسوسون الرعية حسب هواهم، وهذا أمر موجود فى كل العصور يحسه كل من ﴿أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قد يختلف الأسلوب، قد تتغير المناهج حسب طبيعة العصر وظروف المجتمع والبيئة، وقد تغلف هذه الأساليب فى مصطلحات وعبارات اجتماعية رنانة. لكن تظل الأهداف والمقاصد واحدة وهى سياسة الأتباع بمبدأ فرعون ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى﴾.

٢- **الملاحظة الثانية** : إذا تتبعنا أحوال الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم سوف نجد اتفاقاً بين المعارضين للوحى فى كل أمة على وصف الرسل بصفات معينة.

فقد وصفوا الرسل بالسحر تارة، وبالجنون تارة أخرى، أو بالسفاهة والبحث عن الزعامة.

كما اتفقوا على وصف أتباع الأنبياء واتهامهم بأنهم سفهاء القوم، وأراذل الناس، تكرر ذلك كثيراً مع أنبياء الله وأتباعهم. قال

تعالى حاكياً قوم نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وقالوا لنبى الله صالح : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ، فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٨].

وقالوا لنبى الله شعيب : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء : ١٨٥-١٩٠].

وقالوا لنبى الله هود : ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ، إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود : ٥٣-٥٤].

وكذلك كان موقف فرعون وقومه من نبى الله موسى عليه السلام : ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ

مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء : ٣٤-٣٥].

وقـــال فـــرعون للملأ حوله : ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُــمْ لَمَجْــنُونٌ﴾ وقـــال لموسى : ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَــنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ والقصـــة تكرر ذكرها فى القرآن كثيراً ليستفيد منها فراعين التاريخ فى كل العصور ويعوا الدرس والعبرة، ويقفـــوا عـــلى سنن الله فى كونه فقد يمهل الله الظالم، وقد يملى له. ولكنه أبدا لا يهمله.

وإذا أتيـــنا إلى موقـــف مشركى مكة من خاتم الأنبياء محمد (ﷺ) نجـــد نفـــس الاتهـــام ونفس الصفات السابقة تتكرر على ألسنة المشركين فهو (ﷺ) عندهم : ساحر، والقرآن سحر يؤثر وإما شاعر أو مجنون، أو طالب زعامة ورياسة.

فـــلقد اجـــتمعت قريش؛ كبراؤها ووجهاؤها وحاولوا أن يثنوا الرســـول عـــن أداء وظيفـــته الرسالية وقالوا ما توهموه فى رسول (ﷺ): إن كـــنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كنت تريد مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تـــراه (مســـاً مـــن الجـــنون) بحثـــنا لك عمن يبرئك منه. إنها نفس الاتهامـــات الموجهة إلى الرسل من قبل. والذى يقرأ ما نزل فى مكة من آيات القرآن الكريم يعرف تماماً ما واجه الرسول (ﷺ) من هذه

الافـــتراءات والأكاذيب، ولقد لفت القرآن نظرنا إلى هذه الاتهامات، وكيـــف أنهـــا تكرر من رسول إلى رسول، ومن أمة إلى أمة وكأنها ميـــراث مشترك بين معارضى الأنبياء قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ، وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات : ٥٢-٥٥].

ومن الأمور اللافتة للانتباه أن هذه الدعاوى تتكرر – هى هى – مع ورثة الأنبياء فيما بعد. فالمصلحون فى كل عصر متهمون إما بالجـــنون، أو بحـــب الزعامة، والبحث عنها، أو بالتطرف والخروج عـــن المـــألوف للأمـــة، وفى العصر الحاضر ظهرت أوصاف مثل عصرية، حداثية. فهم بين ظلامى متخلف، أو أصولى رجعى.

ومما لا يحتاج إلى تكرار هنا أن الذين يحملون إثم المعارضة لـــلوحى فى عصرنا هم نفس النماذج التاريخية فيما مضى، هم أهل الأهـــواء، وأصحاب السلطان فى كل فئة. وعليك أن تدور بناظريك وتـــتأمل ما يجرى حولك من حوار وإن شئت فقل صراع ثقافى بين فـــئات المجـــتمع فى كـــل عصر وبين حملة الوحى. لتعرف أن هذه الـــنماذج ليـــس معها إلا اتباع الهوى تحت أى اسم كان، وتحت أى شـــعار رفعـــوه ﴿وَلَـــوِ اتَّـــبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

إن قصـــة الصـــراع بين الحق والباطل قديمة جديدة معاً، إنها تــتجدد فى كــل عصر، لأنها سنة من سنن الله فى كونه، إنها سنة الــتدافع بيــن الحق والباطل، وهذه القضية ترتبط بالوجود الإنسانى نفســه، ومن طلب نهاية لها فقط طلب المستحيل ما دام الإنسان حياً متحركاً على ظهر الأرض. ولقد لفت القرآن نظرنا إلى هذه الحقيقة الكونيــة فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُــوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

وهــذا شــأن كــل تجمع بشرى، أن يظهر فيه من الخلافات والصراعات ما يعبر بالضرورة عن اختلاف أهواء الناس وتعارض مقاصــدهم وغايــاتهم، وفى بوتقة هذا الصراع يبتلى الله أهل الحق بأهل الباطل، ليتم تمحيص الناس وابتلائهم بعضهم ببعض، ليميز الله بيــن أهــل العــزائم والارادات الصــادقة وأهل الأهواء والارادات الفاســدة. قــال تعالى : ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِيــنَ أُوتُــوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

وقال سبحانه : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت : ٢-٣]. وكما قال سبحانه : ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت : ١١].

ويرشدنا القرآن الكريم إلى أمر مهم له أثره فى تثبيت قلب المؤمن ما دام مستمسكاً بحبل الله المتين، ذلك أن الكثرة فى أهل الباطل ليست دليلاً ولا برهاناً على أنهم طلاب حق، حتى وأن كان صوتهم عالياً أو أصحاب قوة وسلطان، وأن القلة فى أصحاب الحق ليست دليلاً على أنهم طلاب باطل. فالقرآن الكريم يضع أمامنا حقيقة على جانب كبير من الأهمية فى بعث الاطمئنان والسكينة لدى أهل الحق وأن كانوا قلة : قال تعالى : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف : ١٠٣] وقال سبحانه : ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٧]. من هنا نعلم أن طلاب الحق فى كل عصر قلة إذا قيسوا بأهل الأهواء. لأن طلب الحق فضلاً من الاستمساك به يحتاج إلى مجاهدة النفس وترويضها على ذلك، فقد يكون الحق خلاف هواها، وقد يكون الحق معارضاً لرغباتها ومضاداً لمصالح الإنسان الدنيوية. عند ذلك تحتاج النفوس إلى ترويض ومجاهدة لا يقدر عليها إلا أصحاب العزيمة القوية والإرادة الصادقة ولابد فى ذلك من الاستعانة بالله كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ

جـاهَدُوا فيـنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العكنبوت : ٦٩] وكما قال سبحانه وتعـالى : ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُـمْ﴾ [محمد : ٧]. وكان من دعائه (ﷺ) : "اللهم إنا نعوذ بك مـن شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، وقوله : "اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك".

١- **الملاحظـة الثالـثة** : يلاحظ المرء المتابع لسيرة الأنبياء وجدال المشـركين لهـم أن القضايا التى كانت مثار الشبهات والشكوك واحـدة، بحيـث لا نجـد نبياً إلا قد ابتلى بمن عارضه فى هذه القضايا . وهى :

١- قضية الألوهية. وجود الله ووحدانيته.

٢- قضية النبوة.

٣- قضية البعث.

أ- أمـا قضـية الألوهية فإننا نجد أنماطاً متنوعة من البشر تنوعت مواقفهم من الإيمان بوجود الله ووحدانيته.

فمـن هـؤلاء مـن أنكر وجود الله كلية وقالوا ليس هناك إله معـبود ولا رب خـالق. كالدهريين الذين قالوا :﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾. وكالطبيعين القائلين بـأن الطـبيعة هى الخالق أو أن الأشياء وجدت هكذا بطبعها، وهم أقرب الطوائف إلى الدهريين.

ومــن هــؤلاء مــن قال : إن العالم وجد بالصدفة المحضة، وليست له غاية مقصودة منه ولا حكمة من وجوده، وهؤلاء أصحاب المذهب العبثي الخالص الذى عبر عنه الشاعر الجاهلى قديماً بقوله :

أرى المـــنايا خبط عشواء من تصب تمته

ومــــــن تخـــــطئ بعمــــــر فيهـــــرم

فما هى إلا أرحام تدفع وقبور تبلع.

أو كما قال الشاعر :

حيــاة ثــم مــوت ثــم بعث حديــث خــرافة يا أم عمرو

وأصـــحاب هذه الآراء يتفقون على نفى الحكمة والقصد ونفى الخــالق، وهى آراء قديمـــة تــتجدد فى كل عصر، وفى كل الأمم، والقائــلون بها قلة فى كل مجتمع من شذاذ العقول، ومنهم من ينتمى إلى أهل الأديان وضعية كانت هذه الأديان أو سماوية، وهم الصوت الشــاذ فى الحضـــارة الإنســانية على امتداد تاريخها. لندرتهم وقلة عددهــم، ولذلــك فــإن تاريخ الحضارات فى كل أمة يحتفظ بأسماء هــؤلاء لقلة عددهم، فيذكر اسمه ويصفه بأنه دهرى، أو طبيعى، أو ثنوى ... الخ.

أمــا المــتالهون من المفكرين فلا يدخلون تحت الحصر لأنهم الجمهور الأعظم فى كل أمة.

ومـــن الناس من يؤمن بوجود الخالق لكنه لا يعبده بل يخص غيـــره بالعـــبادة، وقـــد يعبده مع غيره من الشركاء، كالأصنام، أو الكواكـــب، أو بعض المخلوقات، فهؤلاء يثبتون وجود الرب الخالق لكـــنهم أشركوا معه غيره فى عبادته، ولم تستوعب عقولهم إخلاص العبادة للخالق وحده وقالوا لرسله متعجبين: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـــذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ، وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَـــتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْـــتِلاَقٌ﴾ [ص : ٥-٧]، وكـــانت هذه الحجة تتكرر على ألسنة الأمـــم المختـــلفة مع رسل الله فى كل عصر، وكما كانت دعوة كل الرســـل ﴿ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] كـــانت حجة المشركين فى كل أمة ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف : ٧٠].

ومـــن اللافـــت للنظر أيضاً إننا لم نجد فى تاريخ الرسل من دعى قومـــه إلى الإيمـــان بوجـــود الخالق، وإنما كانت دعوة جميع الرســـل هى إخلاص العبادة لله وحده، ذلك أن منكرى وجود الخالق كـــانوا قلة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، ومن هنا لم يعبأ بهم التاريخ وإنما كانت قضية الرسل الأولى : رفع الشرك فى العبودية بحيث لا يعبد إلا الله وحده واكتفى القرآن الكريم فى رده على منكرى الخالق بعـــبارات موجزة لكنها جامعة فقال لهم : ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ

مـــنْ دُونــــهِ﴾ [لقمان: ١١]. وقوله : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَ يُوقِنُونَ﴾ [الطور : ٣٥ -٣٦].

٢- قضية النبوة :

أما الشبهة الثانية فكانت قضية النبوة ، فمن الناس من أنكرها أصـــلاً كالبراهمة وغيرهم، وقالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، وأدهشهم أن ينزل الوحي على بشر من الناس، وقالوا أبشر يهدوننا؟.

ومنهم من قال بنبوة بعض الأنبياء وانكر نبوة البعض الآخر، كـــأهل الكـــتاب من يهود ونصارى ، حيث آمن أهل كل دين بنبيهم وأنكـــروا نبوة غيره من الرسل، ومن المشركين من فضل أن يكون النـــبي ملكاً رسولاً ولا يكون بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وقـــالوا ﴿لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ وقالوا ﴿وَلَوْ شَاءَ الـــلَّهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ فرد عليهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

وبجـــانب هؤلاء وأولئك كان هناك من أنكر على محمد (ﷺ) وإخوانه من الرسل أن يختصهم الله بالرسالة دون غيرهم من وجهاء القوم وسادات الأمة، وقالوا : ﴿أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾؟

.فَقَالُوا : أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ؟

فلماذا تتخطى الرسالة وجهاء مكة وسادتها إلى محمد؟

ولماذا لا يكون الرسول المصطفى من أثرياء القوم ومن كبرائهم، إنها إذن قضية نفسية تحركها عوامل الحقد والحسد على هذا الرسول.

ولذلك بدأت الحملات المسعورة ضد الرسل، فهم إما ساحر أو مجنون، أو طالب مال أو باحث عن زعامة ... الخ وقالوا لرسلهم: إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ، إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ ، وقالوا إن هو إلا رجل منكم يريد أن يتفضل عليكم. وقالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾

لقد غاب عن هؤلاء أن مقياس التفاضل بين الناس فى حياتهم الدنيا بين الفقر والغنى ليس دليلاً على أفضلية الغنى على الفقير، ولا القوى على الضعيف، ولا صاحب السلطان على من لا سلطان له، إن هذا المقياس الأعمى لا علاقة له بقضية الاصطفاء للرسالة. فالله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، ولقد لفت القرآن نظرنا إلى هذه القضية فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ، وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ

رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠-٣٢]. وإذا كان شأن الناس فى أمور دنياهم يتفاوت بين الفقر والغنى، فإن شأن الاصطفاء للرسالة له مقاييس أخرى، وهذه الشبهة قديمة تتجدد مع كل رسول. كما تتجدد مع أتباع الرسل والمصلحين والدعاة فى كل العصور.

٣- القضية الثالثة :

أما الشبهة الثالثة فتتعلق بالبعث واليوم الآخر، فقد أنكر المعاندون للوحى هذه القضية جملة وتفصيلا، وكان الحوار حولها مع أنبيائه ورسله إحدى محارات العقول، كما كانت إحدى مثارات الشبه والشكوك، ولقد لخص القرآن موقف المنكرين للبعث فى آيات كثيرة جاءت فى صيغ متنوعة وبأسلوب استفهامى متعدد تتفاوت دلالته بين الإنكار والرفض أحياناً. وبين التعجب والدهشة أحياناً أخرى.

فقالوا: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾

وقالوا : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا، أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

وقالوا : ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ : ٨].

وليس من قصدنا أن نأتى بتفصيلات. حول هذه القضايا الثلاثة وكيف حكاها القرآن على لسان أصحابها أو كيف فندها

وأبطلها وإنما كان المقصد والغاية أن تتعرف على أن مثارات الشبه ومعارضة الأنبياء كانت واحدة وإن اختلف أسلوب التعبير من عصر إلى عصـــر ومن رسول إلى رسول. وأرى أن القارئ الكريم قد ثار فى نفسـه سـؤال ضـرورى. قـد يطرح هنا : لماذا تقدم لنا هذه الملاحظات وتأتى على ذكر هذه القضايا فى مقدمة هذه الدراسة..؟

ولكى نوضح للقارئ الكريم غرضنا من ذكر هذه الملاحظات فإننا نطرح عليه سؤالاً آخر، هل اختلفت هذه المشكلات التى أثارها المعـاندون للوحى قديماً عن المشكلات التى يثيرها المعاندون للوحى فى عصرنا الحاضر..؟

وهل هناك مشكلات جديدة فيما نقرأه اليوم تختلف عما قرأناه بالأمس عنها فى تاريخ الأنبياء وهل نقرأ جديداً فيما يكتبه المعاندون لـلوحى فى عصـرنا الحاضـر.. أم هى مشكلات قديمة تتجدد مع الإنسـان كمـا قلنا لاكتها الألسنة قديماً وعبثت بها الأقلام والعقول حديثاً..؟

لعـل الإجابة على هذا السؤال توضح الغرض الذى من أجله عانيـنا المشـقة فى هذه المقدمة وأتينا على هذه الملاحظات لنضعها أمـام القـارئ المعاصـر. ليعـرف أن هذه المشكلات التى يثيرها المعارضون للوحى اليوم ليست جديدة على الفكر الإنسانى، وأنها قد أثيـرت فى مواجهـة الأنبياء قديماً وليس غريباً أن تثار فى مواجهة

ورثـــة الأنـــبياء فى العصـــور الـــتالية.. إنها نفس المشكلات ونفس القضـــايا، ونفس الاتهامات التى وجهها المعاندون للأنبياء قديماً. هى بعينها التى يوصف بها ورثة الأنبياء فيما بعد.

لقد ظهر فى تاريخ الأنبياء من أنكر وجود الله وقال بالدهر أو بالطـــبيعة أو بالمصادفة. وظهر فى عصرنا الحاضر من أنكر وجود الله أو كما سماه بعضهم "بالمطلق" أو المفارق وقال إنه غيب والغيب عـــنده خرافة. ينكرها العقل ويأباها الواقع. بل زاد بعضهم على ذلك وجعـــل إيمان المسلمين بالغيب سبباً فى تخلفهم عن الحضارة وعدم مواكبـــتهم لعصـــر النهضـــة. وجعـــل الإيمان بالغيب رمزاً للجمود والـــرجعية وقـــال إن الدعـــوة إلى الإيمان بالغيب هى دعوة للتخلف ومحاربة العقل والعقلانية وأصحاب هذه الدعوة ظلاميون رجعيون.

كمـــا سمعنا من بعضهم من قال إن الله فكرة وهمية ينبغى أن يتخلص منها العقلاء.

ولقد ظهر فى تاريخ الأنبياء من أنكر النبوة والوحى، وقال ما أنـــزل الله عـــلى بشر من شىء. وظهر فى عصرنا من تنكر لقضية النبوة والوحى وقال ويقول بتاريخية الأديان. أى أنها ظاهرة تاريخية أفرزتها طبيعة المجتمعات الإنسانية لظروف اجتماعية معينة وينبغى أن تختفى هذه الأديان بمجرد أن تختفى أسبابها التاريخية وليس هناك كـــتاب مقدس ولا وحى متبع، وينبغى أن يجعل العقل إلهنا بدلاً من

اتباع النقل، ولابد من التخلص من هذه الظواهر التاريخية التى تعود بـنا إلى الماضى بدلاً من أن تقودنا إلى الأمام، وبدلاً من أن تتوجه إلى السـماء نعبد فيها الهاً مفقودا ينبغى أن نتوجه إلى الأرض فنهتم بالإنسان الموجود. وينادى بعضهم بتأنيس الاله أو تأليه الإنسان، إنها ثـورة عـلى العقائد الموروثة التى تكبل حركة العقل وتعوق مسيرة الـتقدم؟ فما الفرق إذن بين الموقفين. ما الفرق بين المعاندين للوحى قديماً والمعاندين للوحى فى عصرنا الحاضر.

ولقـد ظهـر فى تاريخ الأنبياء من أنكر البعث واليوم الآخر. وقالوا ﴿إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

ويوجد الآن بين أظهرنا من لا يؤمن باليوم الآخر كلية ويدعو إلى التخلص من هذه الخرافات التى لا يقبلها العقل إذ لا يعرف العقل المعاصر معنى لما يسمى بالضرورة الدينية، أو الغيب فالإنسان مادة تفنى بفناء الجسم ولا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار. وليس وراء الحياة الدنيا شيء ينبغى أن نعمل لأجله أو نخشاه وما هى إلا هرطقة يأباهـا العقل والعلم معاً وصرح بعضهم بأن هذه القضية كانت ولا زالت إحدى عوامل التخلف للمسلمين.

ولقـد ظهـر فى تاريخ الأنبياء من وصف رسل الله بالسفاهة والضـلالة، والجـنون، والسحر وحب الزعامة والرياسة ويوجد بين أظهـرنا الآن من يصف ورثة الأنبياء بما وصف به رسل الله سابقاً من السفاهة والضلالة، والجنون.

ولقد ظهر لنا من قراءة تاريخ الأنبياء إن الذين عاندوا الوحى وحـــاربوا الأنبياء كانوا أحد نمطين كما سبق إما أصحاب هوى جاء الـــوحى بما يعارض أهواءهم. وإما أصحاب ملك وسلطان رأوا فى تعـــاليم الـــوحى مـــا يزلزل أركان سلطانهم. وعليك أن تتأمل معى أطـــراف الصراع القائم الآن بين أتباع الوحى ومعانديه لتعرف أنهم إمـــا صاحب هوى يتبع هواه وإما صاحب سلطان. ويندرج تحت كل نمط منهما أطراف واتباع، وهذا ما يدعونا إلى القول مطمئنين أنه لا جديـــد فى تاريخ الحواريين بين الوحى ومعانديه، لأنه ليس صراعا بيـــن أشـــخاص بعينهم، وإنما هو صراع بين المبادئ والأهواء، بين أصـــحاب المبادئ، وأهل الأهواء فى العصور المتتابعة وهذه قضية بـــدأت بظهور الإنسان فى هذا الكون ولن تختفى ما دام الإسان على ظهـــر الأرض وصدق الله العظيم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِـــدَةً وَلا يَـــزَالُونَ مُخْتَـــلِفِينَ، إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّـــتْ﴾ [هـــود : ١١٨-١١٩]. ولقـــد صاغ القرآن الكريم قانون الإيمـــان والكفـــر فى قولـــه تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوســـف:١٠٣] كما صاغ قانون الوفاء والجحود فى قوله سبحانه : ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

﴿وَلَقَـــدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَـــتَّى أَتَـــاهُمْ نَصْـــرُنَا وَلا مُـــبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام : ٣٤].

وهــذا هــو الدرس المستفاد مما قصّه القرآن علينا من تاريخ الأنــبياء ﴿لَقَــدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَــوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف : ١١١] إنها إحدى ملامح الوعى بالتاريخ، تــاريخ الصــراع بيــن الحق والباطل، تاريخ العلاقة بين أصحاب المــبادئ وأهل الأهواء. ولقد علمنا القرآن الكريم أنه ليس هناك أحد ﴿أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وإذا كــان تاريخ العلاقة بين الوحى والإنسان فيما مضى، قد بيــن لــنا أن أهــم أسباب المعاندة للوحى تركزت فى اتباع الأهواء ومحــبة العلو والاستكبار التى تفرز لنا عبادة السلطة. فقد انضم إلى هــذه الأســباب فى عصــرنا الحاضر أسباب أخرى أفرزتها طبيعة الاحتكاك بين الحضارات المختلفة، وساعد فى بروزها عوامل التأثير والــتأثر، عوامل تأثير الحضارات المنتصرة فى الحضارات المنهارة فــزكاها محــبة تقــليد الشعوب المهزومة عسكرياً ونفسياً للشعوب المنتصــرة، وهــذه ظاهــرة تاريخية تركت بصماتها على الحضارة الإنسانية فى تاريخها الطويل.

ففى العصر العباسى – خاصة بعد حركة الترجمة – ظهر فى تــاريخ الفكــر الإسلامى قضية التوفيق بين الفلسفة اليونانية الوافدة والدين، أو بين العقل والدين، أو بين الوحى والعقل، وكان أبرز رواد

هـذه الحركة الفلاسفة المشاؤون أمثال الفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد، كما عالجها علماء الكلام – خاصة المعتزلة. وبعض أئمة الأشاعرة كالرازى والجوينى، وكذلك عالجها من علماء السلف شيخ الإسـلام ابـن تيمية، ولقد اختلفت المنطلقات الفكرية لكل مفكر فى تناوله لهذه القصة، فهناك من جعل العقل أصلاً وتأول الوحى لصالح العقـل، وهـناك من جعل الوحى أصلاً وتأول مفاهيم العقل لصالح الوحى، وهناك من فصل القول وناقش المسألة على وجوهها المختلفة فجعل للعقل ميدانه الذى لا يخطئ فيه وجعل للوحى ميدانه الذى هو أصل ومرجع أساس فيه، ومن هنا اختلفت أساليب المعالجة وتنوعت مناهج المفكرين حول هذه القضية.

أما فى عصرنا الحاضر فقد تشابهت فيه المسائل إلى حد كبير مـع عصر الترجمة فى العصر العباسى، وظهرت فيه مقولات تشبه إلى حد كبير تلك المقولات التى ظهرت فى عصر الترجمة، ويعيش العـالم الإسلامى الآن حالة نفسية من الانهزامية التى جعلته مستعدا لتقـبل كل ما يقال ويتردد فى الحضارات المختلفة خاصة الحضارة الأوروبيـة المعاصـرة، والـتى تمـثل فى عصرنا دور المنتصر والحضـارة الغالـبة، والـتى يطالب البعض بأن تكون هى النموذج والمـثال الذى يجب تقليده واتباعه. فبعد حركة الترجمة فى العصر العباسـى ظهرت مقولة أن العقل يعارض النقل، وكان المراد بالعقل

فى هذه المقولة العقل اليونانى المترجم والذى تمثل فى آراء أرسطو وأستاذه أفلاطون فى الإلهيات بصفة خاصة، وفى عصرنا الحاضر ظهرت مقولة أن العلم يناقض الوحى، أو أن الدين يعارض العلم؛ وهذه المقولة استعارتها الأقلام العربية من حضارة الغرب بعد أن أفرزتها قصة الصراع بين الكنيسة والعلم فى العصور الوسطى، وطبعاً كان الدين الذى يعارض العلم فى أوربا ليس هو الإسلام بالقطع ومن الإنصاف أن نقول إنه أيضاً ليس دين المسيح ابن مريم، وإنما كان ديناً اخترعته الكنيسة ونادى به رجالها.

وكما قبل الفلاسفة المشاؤون قديماً مقولة أن العقل يعارض الدين فقد انخدع كثير ممن يحملون الأقلام فى عصرنا وقالوا إن الدين – وهم هنا يقصدون الإسلام – يعارض العلم.

وكما صدَّق الفلاسفة قديماً هذه المقولة وحاولوا تأويل النقل لصالح العقل اليونانى، فإن كثيرين فى عصرنا الحاضر قبلوا مقولة أن الدين يعارض العلم وحاولوا تبعاً لذلك رفض الدين دون أن يفرقوا بين الإسلام وغيره من الأديان الأخرى.

ثم أخذ بعض المفكرين من علماء النفس والاجتماع يستعيرون تفسيرات مفكرى الغرب للدين أو ما أسموه ظاهرة الدين بعد أن فقدوا الثقة فى دينهم الذى ورثوه عن الكنيسة فى العصور الوسطى، وتعددت التفسيرات واختلفت الاجتهادات، فعلماء النفس جعلوا قضية

الدين والتدين حالة نفسية تصاب بها الشعوب فى حالة الهزائم النفسية والسياسية.

أمـــا عـــلماء الاجتماع فجعلوا الدين ظاهرة تاريخية أفرزتها الظـــروف الاقتصـــادية والاجتماعية وينبغى أن تختفى هذه الظاهرة باختفاء أسبابها، وتبنت بعض المدارس الاجتماعية فى العالم العربى هـــذه الآراء التى استعارتها من الغرب وحاولت أن تفسر فى ضوئها ظهور الإسلام، وما دامت أسباب ظهوره قد انتهت فينبغى أن يختفى الإســـلام تـــبعاً لهـــا. هكذا يقول العلمانيون فى مؤتمراتهم وندواتهم ومؤلفـــاتهم، فالإســـلام عندهم ظاهرة تاريخية، والقرآن الكريم منتج ثقـــافى لا يعـــلو على نقد العقل ، وينبغى أن يطور العالم الإسلامى نفســـه مـــن مرحلة الاعتقاد إلى مرحلة الثورة على العقيدة كما فعل الغرب.

لقـــد ارتفعـــت أصوات كثيرة فى عالمنا العربى تنادى بهذا، وكلما ساءت أحوال العالم الإسلامى اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً علا صـــوت هـــؤلاء المســـتغربين بوجوب تقليد الغرب المتقدم اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ليجعل منه القدوة والمثل، ومع كثرة الهزائم التى تحـــل بالمسلمين شرقاً وغرباً يزداد ضجيج المعاندين للوحى وترتفع أصواتهم مطالبين بأن يكون الغرب قبلتنا ثقافياً واجتماعياً ودينياً كما هو قبلتنا اقتصادياً. أما أن نسمع صوتاً واحدا ينادى بأن يكون الغرب

قبلتنا سياسياً فتتمتع شعوب العالم العربى بالحرية كما يتمتع بها الغرب، أو ينعم بالديمقراطية كما ينعم بها الغرب، فهذا ما لم نسمعه من أحد بعد.

وهذه الدراسة الموجزة محاولة متواضعة أتينا خلالها بتوضيح العلاقة التاريخية بين العقل والنقل ومهمة كل منهما، وما هى وظيفة العقل وعلاقته بعالم الشهادة وعالم الغيب، وحاولت فيها أن أوضح فلسفة الإسلام فى موضوع المعرفة وغايتها وموضوعها.

وعلاقة الوحي والعقل بهذه القضية وعناصرها المختلفة وأن لهذا العالم عالم الشهادة باعتباره موضوعاً للمعرفة وظائف متعددة منها وظائف كونية، ومنها وظائف اجتماعية، وأخرى عرفانية، وأن حاجة النفس إلى الاعتقاد حاجة فطرية ضرورية ، وأن الموقف المعرفى كله تختلف فلسفته فى الحضارة الإسلامية عنها فى الحضارة الغربية من ناحية الأهداف والمقاصد، وكذلك من ناحية الوسائل والمناهج. وليغفر لنا القارئ الكريم ما يجده فى هذه العجالة من تقصير وليكن عذرنا بين يديه نبل المقصد، وسمو الهدف، والله من وراء القصد وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

(٢)

المعرفة بين العقل والوحى

مـــن المهم فى هذا السياق أن نبين أن المعرفة الإنسانية تتنوع مصادرها وأدوات تحصيلها، فأحياناً نقول هذه معرفة حسية خالصة، إذا كـــان موضـــوعها المحسوسات وأدواتها الحواس، كرؤيتنا للنار وللشـــمس والهـــرم، وأحياناً نقول هذه معرفة عقلية خالصة إذا كان موضوعها هو المعانى والمعقولات المجردة كعلمنا بالعدل وأنه خير، والظلم وأنه شر، وكعلمنا بأن النقيضين لا يجتمعان أبداً، ولا يرتفعان أبـــداً، وأحيانـــاً نقول هذه معرفة حسية عقلية معاً كعلمنا بالمعارف التجريـــبية مـــثل أن الـــنار محـــرقة وأن الثلج بارد والشمس تبعث الحرارة.... الخ.

ومـــن الملاحظ أن كل هذه المعارف الحسية المتنوعة ترتبط بـــالواقع الحسى وتبدأ منه وتعود إليه بسبب ما، أما المعارف العقلية الخالصة فلا علاقة لها بالمحسوسات أصلاً لا بدءاً ونهاية وإنما هى إدراك عقلى مجرد عن الحسيات ولواحقها.

ولكـــن هـــناك لـــون آخـــر مـــن المعـــرفة يتعلق بما وراء المحسوســـات، يتعـــلق بعـــالم الغيب، وليس التعرف على هذا العالم

معــزولاً عــن العقــل ولا منقطع الأسباب بالعالم الحسى كما يخيل للـبعض أن يزعم ذلك، ولكن منهجه فى التعرف عليه وعلى مسائله يختـلف عــن منهج التعرف على عالم المحسوسات أو عالم الشهادة بـلغة أهل الاصطلاح. إن الخلاف فقط خلاف فى المنهج والوسائل، وإذا أحســن الـباحث توظيف المنهج العلمى فى التعرف على عالم الشـهادة والـتعرف على وظيفة هذا العالم وأهداف وجوده ومقاصده والغايـة الالهيـة من وجوده، فإن ذلك يقوده بالضرورة إلى التعرف على عالم الغيب وقضاياه.

ولما كان هذا العلم عزيز المنال على كثير من العقول، صعب التحصـيل لكـثرة ارتـباط العقل بالمحسوسات كان دور الوحى فى الـتعرف عليه مهما وضرورياً ليقود العقل إلى ما غاب عنه، ليقرب إليــه ما بعد عنه وليكشف له عما وراء حجب المحسوسات، وليست حاجة العقل إلى الوحى هنا تعنى الطعن فى العقل أو التقليل من شأنه كمــا يحــاول الـبعض أن يصور القضية وكأنها صراع بين العقل والــوحى، لا. أن القضية ليست طعناً فى العقل ولا تهويناً من شأنه إنها فقط توزيع وظائف، إنها أشبه بوضع كل أداة من أدوات المعرفة فى مكانهــا المناســب لها ومحاولة الإفادة منها فى مكانها وبوضعها الطبيعى المخلوقة من أجله، وكما قلنا إن هناك معرفة حسية خالصة أدواتهــا الحواس، وهناك معرفة عقلية خالصة أدواتها العقل ومعرفة

حســية عقلية يشترك في تحصيلها العقل والحواس معاً فكذلك هناك معــرفة غيبية لا ينالها العقل بمفرده بل لابد له من الاستعانة بالوحى لكى يتعرف عليها بواسطته ويؤمن بوجودها. هذا إذا كنا نتعامل مع عقــل مؤمــن بــالوحى والرسالة أما إذا كان الخطاب مع عقل غير مؤمن فإن ذلك له مستوى آخر من الخطاب ليس هذا موضعه.

(أ)

مفهوم الوحى

◈ الوحى وسيلة للمعرفة :

ليس هدفنا التعرض تفصيلاً للوحى وما يتعلق به من مسائل كلامية، فقد تكلفت بذلك كتب علم الكلام والعقيدة، ولكن الذى أقصده هنا بيان أن الوحى إحدى وسائل المعرفة الخاصة بالغيبيات فإذا كان عالم الشهادة له وسائله المعرفية من الحواس الخمسة والعقل والتجربة فإن العالم الغيبى له وسيلته أيضاً وهى الوحى :

والوحى فى اللغة هو الإعلام الخفى وقد يضيف البعض قيداً إلى ذلك فيقول هو الإعلام الخفى السريع.

وعند الأصوليين إعلام الله تعالى أنبياءه ورسله بشرع ليعملوا به ويبلغوه للناس، فنزلت شريعة التوراة على موسى، ونزل الإنجيل على عيسى ونزل القرآن على محمد (ﷺ).

وقد يطلق لفظ الوحى ويراد به جبريل ملك الوحى الذى نزل بهذه الكتب السابقة، كما فى قوله (ﷺ): يأتينى أحياناً مثل صلصلة الجرس، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً، وكما فى قول عائشة رضى الله عنها، ولقد رأيته (ﷺ) ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فينفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

وقد يطلق الوحى ويراد به القرآن الكريم كما فى قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [سورة النجم: ٤، ٥]

والوحى كوسيلة للعلم ليس قاصراً على نزول الملك جبريل على قلب الرسول وإنما تتنوع طرقه :

١- فقد يكون بواسطة الملك جبريل وهو خاص بالوحى الرسالى التشريعى.

٢- وقد يكون الوحى رؤيا منامية، كما فى قصة إبراهيم عليه السلام، فقد رأى فى المنام أنه يذبح ولده اسماعيل. قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ من الصابرين﴾ [الصافات : ١٠٢].

وكما رأى (ﷺ) أنه يفتح مكة، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمنينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ٢٧].

وكما أوحى إلى أم موسى أن أرضعيه، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وقد يكون الوحى بالكلام من وراء حجاب. كما أوحى الله إلى نـبيه موسى عليه السلام. قال تعالى : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿ فَقُـولا لَـهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَـى﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْـتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى، إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه ١١ : ١٤].

ومـن المفيـد هنا أن ننبه إلى أن وحى الرسالات التشريعية قاصـر عـلى الـنوع الأول فقـط، فلم تفرض الفرائض والتكاليف الشـرعية إلا بواسـطة ملك الوحى جبريل(١)، أما بقية أنواع الوحى الأخـرى فـهى وسائل إعلام من الله لمن شاء من عباده بأمر الدين ليعمـلوا به فقط وليبلغوه لأقوامهم على سبيل التكاليف الشرعية التى هى الأوامـر والنواهى ومما يدل على أن الوحى وسيلة إعلام وتعليم أن الله تعـالى قـد يوحى إلى بعض مخلوقاته تعليماً لهم وإلهاماً بما يـريده الحـق مـنهم، كمـا أوحى سبحانه إلى النحل. قال تعالى : ﴿وَأَوْحَـى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّـا يَعْرِشُـونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْـرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٦٨، ٦٩].

---

(١) باستثناء فريضة الصلاة التى فرضت ليلة المعراج برسول الله (ﷺ) .

فهذا إلهام وتعليم للنحل لكى يؤدى وظيفته المطلوبة منه. حيث ألهمــه الحق. كيف يبنى بيته بطريقته الهندسية، كيف يسلك سبله إلى جــنى الـثمار والأزهار من أماكنها. كيف تتحول فيه وبه إلى عسل مصفى فيه شفاء للناس. هذا كله إلهام وتعليم من الله سبحانه.

وكمــا يكــون الوحى من الله لبعض مخلوقاته. يكون الوحى أيضاً من الشياطين لأوليائهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

والذى أنبه إليه هنا أن الوحى فى كل هذه المواقف وعلى كل هذه المستويات هو إعلام. وإخبار. وهو تعليم وإلهام. وهو وسيلة من وســائل العــلم خاص بمن هم أهل له والعلم بالغيبيات ومسائلها التى أخبر بها الأنبياء ليس لنا وسيلة للعلم بها إلا الوحى الرسالى.

ولا يــنكر العقل نوع الإلهام الذى يتعامل به النحل ومن على شــاكلته من الحشرات، كما لا ينكر العقل أيضاً نوع الرؤى المنامية وإن اختلف العقلاء فى تفسيرها، لأن هذين النوعين من الوحى يشهد الواقع بهما، وقد شاهد كل منا خلايا النحل وهى تعمل بشكلها المنظم العجيــب، وأيضاً فإن كل إنسان قد جرب بنفسه نوع الرؤى المنامية سواء سماها رؤيا أو حلماً، وسواء فسرها فى ضوء تعاليم الأنبياء أو جعــلها حــلماً شــيطانياً، فإن اختلاف التعبيرات أو التأويلات حول ظاهرة ما يؤكد وجود الظاهرة ولا يلغيها.

ولكــن قد يتوقف بعض أصحاب العقول أمام الوحى الرسالى. وقــد يتحفظ فى قبوله وقد ينكره بالكلية. وإذا طالبنا المنكرين للوحى بــالدليل وإقامة البرهان على صحة دعواهم فى إنكار الوحى لا نجد لديهــم دليلاً واحدا على إنكارهم للوحى إلا قولهم إن الوحى لا تثبته الــتجربة، أو لا تســتطيع الاستدلال عليه ببرهان العقل، وهذا الذى يســتدلون بــه ليس دليلاً موجباً وإنما هو دليل نفى العلم. بمعنى أنه دليــل على عدم وجدانهم لدليل الإثبات ، فهم لا يعرفون دليلاً موجباً للقول بالوحى وإنما الذى يعرفونه أنهم افتقدوا دليل الإثبات إلى غير ذلك مما يدعيه هؤلاء.

والســؤال الــذى أطــرحه عليهم هو: هل عدم علمكم بدليل الإثبات للوحى. يعتبر دليلا على نفى الوحى فى ذاته؟

وهــل افتقادكم الدليل يعتبر دليلاً قائماً بذاته تحتجون به على نفى الوحى.

إن عــدم معرفــتكم بالدليل يعد دليلاً على جهلكم بالدليل الذى يعــلمه غيركم. والذى يشهد به الواقع والبرهان. ومن المعروف فى لغــة الأصوليين أن عدم العلم ليس علماً بالعدم. بمعنى أن عدم العلم بــالدليل ليــس علماً بعدم وجود المدلول فى ذاته ، فقد يكون الشىء موجــوداً ولا تعــلم دليل وجوده، وقد يكون له أكثر من دليل وحجة وعــدم العــلم بدليل الإثبات ليس دليلا على نفى الوجود بل هو دليل على جهلكم بدليل الإثبات ، وما تجهلونه أنتم فقد علمه غيركم بدلائله

وبراهينه، فلا حجة لأحد فى رفض الوحى أو التنكر له. إلا الاستعلاء والمكابرة. كما أخبر الله رسوله الكريم بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام : ٣٣]. وسوف نوضح فيما يأتى أن الوحى ضرورة عقلية ومعرفية كما هو ضرورة اجتماعية ونفسية. والذين ينكرون الوحى الإلهى إلى رسل الله وأنبيائه عليهم أن يرجعوا القرآن الكريم باعتباره آخر وحى نزل من السماء. ويتأملوا ما جاء فيه وما أخبر عنه وما تنبأ به، وما أشار إليه من آيات كونية فى الأنفس وفى الآفاق، ويسألوا أنفسهم من أين لرجل أمى ولد ونشأ فى جزيرة العرب بمعزل عن جميع الروافد الثقافية أن يعلم ذلك، وهى أمور لم يكن لأهل جزيرة العرب علم بها من قبل، ومنها أمور لم يكن للبشرية كلها علم بها قبل نزول الوحى بها، من أين له - (ﷺ) - العلم بما قصه القرآن عليه من أحوال الأمم الماضية ومن أحوال الأنبياء السابقين عليه مع أقوامهم؟ إن القرآن الكريم نفسه يخبرنا بأن الرسول لم يعاصر هذه الأحداث ولم يشاهد قصص القرآن ولم يحضرها. فما مصدر علمه بها . كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ (أى موسى عليه السلام) حين ناداه ربه بالوادى المقدس طوى، ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران : ٤٤].

وليس هناك مصدر آخر لهذه المعلومات إلا الوحى بها. كما قال تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أى ما أخبر به القرآن عما مضى من أحوال الأمم الماضية.

والذين عرفوا أحوال الرسول (ﷺ) ودرسوا سيرته بين قومه قبل البعثة وبعدها يعلمون أنه (ﷺ) لم يكن كاهنا ولا عرافا ولا اشتغل بالسحر حتى يقولوا إن الرسول قد عرف ذلك عن طريق الكهانة والعرافة، ولقد كانت سيرته (ﷺ) بين قومه وأحواله التى عرف بها سبباً فى أن كثيراً من أهل مكة آمنوا به قبل أن يقدم لهم برهاناً ولا دليلاً على صحة قوله، بل كفاهم عن هذا معرفتهم بأحواله وصدقه، والقرآن الكريم بين أيدى المسلمين الآن وإلى الأبد وهو دليل قائم بذاته على صدق رسالته، وكل آية فيها دليل على صدقه بما فيها من وجوه الإعجاز الذى يبهر العقول، فهلا آمن المنكرون للوحى بأن عدم علمهم بدليل الوحى ليس دليلاً على نفيه؟ وإنما هو دليل على جهلهم بما علمه غيرهم.

(ب)

مفهوم العقل

من المعلوم أن دلالة الألفاظ تنقسم إلى دلالات لغوية عامة ودلالات اصطلاحية خاصة بأهل كل فن وصناعة، فالدلالة العامة للألفاظ نبحث عنها فى معاجم اللغة حيث نجد المعنى اللغوى العام لكل كلمة مستعملة وشائعة.

أما المعانى الاصطلاحية فنبحث عنها فى المؤلفات الخاصة بكل فن من فنون القول، مثل الفاعل فى علم النحو يختلف عنه الفاعل فى القانون وعلم الجريمة، وليس من قصدنا فى هذا البحث أن نتعرض للمعنى اللغوى العام لكلمة "العقل" أو لبيان أصولها الاشتقاقية، وليس من قصدنا أيضاً البحث عن العلاقة بين المعنى اللغوى للكلمة والمعنى الاصطلاحى لها، لأن ذلك قد تعرضت له دراسات عديدة فى مجالات مختلفة. والذى نقصده بالدرجة الأولى هنا بيان مفهوم العقل الوظيفى المعرفى.

لقد عرَّف الفلاسفة العقل بأنه جوهر قائم بنفسه وقالوا إن هذا التعريف مبين لماهية العقل وحقيقته، وهذا التعريف يقوم عندهم على أساس مذهب الفلاسفة فى التفرقة بين الماهية والوجود. وهذه التفرقة قد ثبت بطلانها فى العديد من الدراسات التى نهض بها علماء

كثيرون وبينوا أن هذه التفرقة لا أساس لها إلا فى التصور العقلى فقط، وبينوا أن ماهية الشيء عين وجوده وليس فى الخارج الحسى شيء يسمى ماهية الشيء وآخر يسمى عين الشيء، وأن هذه التفرقة إذا صحت ذهناً وعقلاً فلن تصح واقعاً ووجوداً، وأن تعريف الفلاسفة للعقل بأنه جوهر قائم بنفسه غير صحيح. ذلك أن من خصائص الجوهر القائم بنفسه أنه يفعل دائماً ولا ينفعل، فهو فعل محض، وذلك لا يتوفر فى العقل حسب تصويرهم له.

ومن الأخطاء التى تأسست على مفهوم الفلاسفة للعقل بهذا المعنى السابق أنهم قالوا بنظرية العقول العشرة ليفسروا بها خلق العالم وصدوره عن الأول، وجعلوا العقل العاشر فى هذه السلسلة هو المشرف على ما تحت فلك القمر، ومن المعلوم أن هذه النظرية تتعارض مع الدين وأصوله نصاً وروحاً ولذلك كان موقف السلف منها هو الرفض المطلق، وحذروا جمهور المسلمين منها ومن القائلين بها.

ولعل من المفيد للقارئ الكريم أن يراجع فى أخطاء هذه النظرية الكتاب العظيم المرسوم "بالصفدية" لابن تيمية أو كتاب بغية المرتاد فى الرد على القرامطة أهل الإلحاد، حيث فصل فيهما ابن تيمية القول فى بطلان مذهب الفلاسفة فى العقل والعقول العشرة. وبين أنها لا تصح عقلاً ولا شرعاً، وأنها مؤسسة على مفهوم فاسد فى العقل لمعنى المعقل.

وأن مفهوم الفلاسفة لمعنى العقل مأخوذ من اصطلاح اليونان للكلمة ، ولا ينبغى أن يتحكم به قائله فى أهل الصناعات الأخرى ولا فى لغات أهل الأرض، ولا يجوز أن يجعله بديلاً عن المعنى اللغوى العـــام لمفهـــوم العقـــل فى لغتـــنا العربية أو ا لمعنى العام لها عند الإطلاق، وهذا المعنى اليونانى قد يوافق مذاهب اليونان ولغتهم لأنهم ليســـوا أهل دين ولا كتاب منزل، فمن أخذه عنهم وجعله مذهباً له لا يجـــوز أن يلزم الغير به، ولا أن يجعل المخالف له مخطأ، لأن هذه المعانى اصطلاحية خاصة بأهلها فلا نحكم بالخطأ على مخالفهم ولا نلزم الغير بالأخذ به.

والعقـــل غريـــزة فطرية فى الإنسان يستطيع بها أن يميز بين الحـــق والـــباطل فى المعـــتقدات ، والصـــواب والخطأ فى الأقوال والأفعـــال، وأخـــذ بهـــذا المعـــنى الإمـــام أحمد بن حنبل والحارس المحاسبى وابن تيمية وابن القيم وجمهور السلف على ذلك، ورفضوا تمامـــاً الأخـــذ بمفهـــوم الفلاسفة للعقل وعارضوه وبينوا ما فيه من قصور وما يترتب على الأخذ به من فساد فى الدين والعقل معاً. ولقد ظـــن البعض خطأ أن السلف حين رفضوا المفهوم اليونانى للعقل قد رفضوا العقل وأحكامه. ولعل السبب فى ذلك أن نبرة التقديس للفلسفة اليونانيـــة كانت قوية وعالية فى عصورهم، واعتبرها البعض منزهة عن الخطأ وأن كل ما خالفها من النصوص الشرعية ينبغى أن يؤول

لصـــالحها ليكون موافقاً لها، وتلك مشكلة كبرى عاشها السلف دفاعاً عن قداسة النص القرآنى فى مواجهة تقديس البعض للفلسفة اليونانية، وتنزيهها عن الخطأ.

ولقد استغل العلمانيون المعاصرون هذه القضية ، وأشاعوا أن السـلف أعـداء لـلعقل ورافضون لأحكامه ويحاربون من يأخذ به وانطـلقوا مــن هــذا القول إلى ما هو أخطر حيث قالوا بأن القرآن يــناقض العقــل ولم يستطع هؤلاء المخالفون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث. ويفرقوا بين الموقفين :

* **الموقــف الأول** : أن السلف يرفضون مذهب الفلاسفة فى العقل. وأن معــنى العقــل عــند الفلاسفة معنى اصطلاحى خاص بهم وحدهــم، وليس هو بديلاً عن المعنى اللغوى العام ولا هو ملزم لغيــر الفلاسفة أن يأخذوا به، ولا هو بديل عن معنى الكلمة فى لغة العرب التى نزل بها القرآن.

* **الموقــف الثانى** : أن رفض السلف لمفهوم العقل عند الفلاسفة لا يعنى أبداً أن السلف يرفضون العقل أو يردون أحكامه.

وتَحــرى الحــق فى مثل هذه المسائل الدقيقة ليس فى طباع الكــثيرين من الناس خاصة إذا كانوا أصحاب هوى. كأن ينتصرون لمذهــب معين أو يشنعونّ على آخرين بما ليس فيهم لإظهارهم أمام الناس فى مظهر سيئ.. وهذا كثير وواقع فى كل عصر، خاصة وأن

أهـل الحق فى كل عصر قلة، وأدوات التشنيع ووسائلها متوفرة مع الخصـوم مما أظهر المنهج السلفى بمظهر المضاد للعقل الرافض له وهذا افتراء عليهم.

ولقـد كـان السلف فى حقيقة موقفهم من العقل وأحكامه أكثر فطـنة وذكاء وأكثر احتراماً للعقل حين رفضوا مذهب الفلاسفة فى ذلك.

فالسـلف يرون أن العقل ليس أداة ولا حالاً فى أداة، فهو ليس كحاسـة السـمع الحالـة بالإذن ، أو حاسة البصر الحالة فى العين. وبالتالى هو ليس جوهراً قائماً بنفسه كما يقول الفلاسفة.

والإمام أحمد حين عرف العقل بأنه غريزة ندرك بها الأشياء ونستنبط بها العلم بالأحكام فإن هذا التعريف من وجهة نظرنا يحتاج إلى توضـيح ، ذلـك أن كـلمة غريزة كلمة مجملة، وربما اشتبهت بالغرائـز الدنيا فى الإنسان وإن كان هذا المعنى ليس مقصوداً للإمام أحمد.

والـذى يسـتقرئ تراث السلف فى هذه المسألة يجد أن معنى العقـل عندهم أقرب إلى أن يكون "وظيفة إدراكية يتعاون فى أدائها جميع ملكات الإنسان المعرفية" ما عرفناه منها وما لم نعرفه[1].

---

(١) راجع : كتابنا تأملات حول منهج القرآن فى تأسيس اليقين، القاهرة، ١٩٨٥م

هو وظيفة يرتبط وجودها فى الإنسان بوجود أدواتها الظاهرة والباطنة، وبمقدار ما تكتسبه هذه الأدوات من الخبرة الزمنية ويحصل لها من النضج يكون مقدار العقل للأشياء أتم وأكمل وتعقلها للأمور أكثر نضجاً وأقرب إلى الصواب.

ومفهوم العقل هنا يساوى تماماً فى الاشتقاق اللغوى المعنى المصدرى لقولنا : فهمت المسألة فهماً، وضربت الولد ضرباً، فتقول عقلت المسألة عقلاً وتعقلت الأمر تعقلاً، وعملية العقل للمسألة والتعقل للأمر ليس لها مكان فى الجسم فتحل به ، وليس لها أداة معينة فى الجسم. فتقوم بها كما يقوم البصر بحاسة العين ويقوم السمع بحاسة الأذن، وإنما هى وظيفة جامعة لكل وظائف الحواس وهى التى تجرد هذه الحواس عن لواحقها الحسية، فالعين تدرك الأسود والأبيض والعقل هو الذى يدرك معنى البياض والسواد والذوق يدرك الحلو والمر والعقل هو الذى يدرك معنى المرارة والحلاوة.

والقرآن الكريم حين ذكر الحواس المعرفية قرن كل حاسة بوظيفتها. قال تعالى : ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]. وأحياناً يذكر الحاسة مقرونة بوظيفتها على سبيل النفى كما فى قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾

[الأعـــراف: ١٧٩]، وأحيانـــاً يذكر حاستي السمع والبصر ويردفها بكـــلمة الفؤاد، قال تعالي: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَـــرَ وَالْفُـــؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾ [الإسراء : ٣٦]. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾.

والـــتعقيب بكـــلمة الفؤاد بعد حاستي السمع والبصر يتضمن التنـــبيه إلى مـــا غـــاب عنا من وسائل الإدراك الباطنة، ومن أهمها وظيفة القلب، فالقرآن الكريم يصف القلب فى العديد من الآيات بالفقه أو التعقل نفياً أو إثباتاً.

وأحيانـــاً يجعـــل وظيفة القلب أهم وأسمى من وظيفة الحواس الظاهـــرة. قال تعالى : ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وأحيانـــاً يـــلفت القـــرآن نظرنا إلى أن وظيفة الحواس وسيلة مقصـــودة إلى تحقيق غاية أسمى من مجرد الإدراك الحسى للأشياء، وإذا لم تتحقق هذه الغاية كانت الوظيفة الحسية للأداة فى حكم العدم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُـــونَ بِهَـــا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـــئِكَ كَالأَنْعَـــامِ بَـــلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال سبحانه ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ١٩٨].

فالوظيفة الحسية لهذه الأدوات قد تكون موجودة ومتحققة، لكن الغايـــة والهــدف من الوظيفة الحسية مفقودة، وهى عملية التعقل لما يــرى ومـــا يسمع . فصارت الحاسة فى حكم المفقودة تماماً لغياب الهــدف وفــوات الغايـــة، فهذا كله وغيره كثير ينبهنا إلى أن منطق الســلف فى مفهوم العقل يختلف تماماً عن مفهوم الفلاسفة. يقول ابن تيميـــة: والعقل فى كتاب الله وسنة رسوله وكلام الصحابة والتابعين وســـائر أئمة المسلمين هو أمر يقوم بالعاقل سواء سميناه عرضاً أو صفة. فليس هو عينا قائمة بنفسها سواء سمى جوهراً أو جسماً وإنما يوجــد التعبير بالعقل عن الذات العاقلة. فهو صفة تقوم بالعاقل، وإذا قيــل فـــلان العـــاقل أو صاحب عقل فإنما يراد به امتلاكه العلوم أو الخـــبرة الـــتى يميـــز بهـــا بين الصواب والخطأ فى الأقوال والحق والـــباطل فى الاعتقاد وهذا ما قصد إليه الإمام أحمد فى تعبيره عن العقـــل بالغريزة الثابتة فى الإنسان، فكما أن فى العين قوة بها يبصر الإنســـان فكذلـــك الإنسان يمتلك هذه الغريزة التى يتحقق بها العقل والفهم والتدبر، وهى ليست جوهراً ولا حالة بعضو معين فى الجسم ولكـــن يتعاون فى أدائها جميع الملكات المعرفية فى الإنسان الظاهر منها والباطن.

وقد يطلق العقل ويراد به العلوم التى حصلناها بهذه الغريزة. وبهــذا المعنى فإنه يكون معناه صفة العلم المتحصلة والقائمة بالذات العالمـــة، ويميل شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن العقل كوظيفة يتعلق

بالقــلب، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]. وقيل لابن عباس : بماذا نلت العلم؟ قال: "بلسان سئول وقلب عقول".

وليــس المقصود بالقلب هنا العضو المادى فى الإنسان ولكن المراد منه الوظيفة الإدراكية لهذا العضو. كما قال: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومــن المهم أن ننبه هنا إلى أن العمل يدخل فى مفهوم العقل عــند السلف. ذلك أن كل عمل تسبقه إرادة ، وأصل الإرادة ومحلها فى القــلب، والإنســان لا يكون مريداً إلا بعد تصور المراد وتعقله وتحديــد مقصوده منه. فلابد أن يكون القلب متصوراً للشىء المراد قبل تحققه واقعاً، يقول ابن تيمية: "وإذ قد خلق الله القلب لأن يعلم به فتوجهه نحو الأشياء ابتغاء العلم بها هو الفكر والنظر، كما أن إقبال الإذن على الكلام ابتغاء سماعه هو الإصغاء وانصراف الطرف إلى الأشــياء ابــتغاء رؤيتها هو النظر. فالفكر للقلب كالإصغاء للأذن، والبصــر للعين. وإذا علم ما نظر فيه فذاك مطلوبه.. وكم من ناظر مفكــر لم يحصل العلم ولم ينله، وعكسه كم من أوتى علماً بشىء لم يــنظر فيه ولم تسبق إليه منه سابقة تفكير فيه.. وذلك كله ليس لأن القلب بنفسه يعقل العلم وإنما الأمر موقوف على شرائط واستعدادات قــد تكون فعلاً للإنسان ومطلوباً له، وقد تكون فضلاً من الله فيكون

موهوباً منه. فصلاح القلب وحقه الذى خلق من أجله هو أن يقبل الأشياء، لا أقول يعلمها فقط، فقد يعلم الشىء من لا يكون عاقلاً له بل غافلاً عنه، والذى يعقل الشىء هو الذى يقيده ويضبطه ويعيه ويثبته فى قلبه فيكون فى وقت الحاجة إليه غنياً به فيطابق عمله قوله وباطنه ظاهره، وذلك هو الذى أوتى الحكمة. وهذا هو مجال تفاوت الناس علماً وعملاً، فمن رأى الأشياء أو استمع إلى الأقوال بغير قلب واع لما يرى أو يسمع لم يستفد شيئاً مما رأى أو سمع، فصار مدار الأمر كله على القلب.

وقد أكد القرآن هذه القضية فى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] والقلب لا يقبل من الأمور إلا ما كان صواباً، ولا يقبل من الاعتقاد إلا ما كان حقاً. وهذه سنة الله فى خلقه للقلب، فإذا لم يوضع فيه الاعتقاد الحق فإنه لا يقبل غيره ولا يطمئن إليه، ولا يزال القلب يتقلب فى أودية الأفكار بين الحق منها والباطل، لأنه لا يترك خالياً فارغاً أبداً، بل لابد له من الاشتغال بالفكر والنظر، ولا تتكشف للإنسان هذه الأحوال إلا بعد رجوعه إلى الحق والصواب فى القول والاعتقاد، فيتبين له حينئذ أن القلب كان هائماً فى أودية الفكر بلا حاصل، ولو ترك القلب وحاله التى فطر عليها لم يقبل من الاعتقاد إلا ما هو حق، ولا من الأقوال إلا ما هو صواب وتلك فطرة الله فى خلقه للقلب.

هـذا هـو مفهوم العقل، هو عملية وظيفية يقوم بها الإنسان، وتـتعاون فى أدائهـا كل الملكات المعرفية فى الإنسان الظاهر منها والباطن. ما علمناه منها وما لم نعلمه.

وهـذا المعنى مال إليه سلف الأمة وقالوا به فهم لا يرفضون العقـل إذن كمـا حاول البعض أن يشنع عليهم بهذه الأكذوبة ولكنهم يرفضون مذهب الفلاسفة فى العقل.

وهم لا يرفضون أحكام العقل ولا يقللون من شأنه فى تحصيل العلوم واكتساب المعارف.

إذ كيف يرفضون العقل وأحكامه والإسلام فى مبادئه وأصوله وشـريعته مؤسس على خطاب العقل. فالقرآن نزل ليخاطب العقلاء، وليـتدبره العقـلاء، وليستنبط أحكامه العقلاء ومن فقد العقل فقد فقد أهـلية الخطاب القرآنى، وليس له فى خطاب الشرع ما يذم عليه ولا ما يمدح من أجله. بل ليس للمرء من عباداته فى الإسلام إلا ما عقل منها. وشرائع الإسلام كلها لم يكلف بها إلا العقلاء، فكيف يشنع على مـنهج السـلف بهـذه الفرية الظالمة. التى تدل على جهل صاحبها بمذهب السلف وبمنهجهم العقلانى المنضبط.

ولعـل السبب فى ذلك أنه كلما تقادم العهد بزمن النبوة وجيل الصحابة والتابعين، وقل العلم بالآثار النبوية وانطمست معالم المنهج، وقـل الملـتزمون بـه وكثر المخالفون له والمشنعون عليه ممن لهم

زلـفى عـند أهل الرياسات وأصحاب النفوذ من الملتفين حولهم من الذيـن يجيـدون الالـتفاف حول جميع الموائد فى كل عصر فتكثر الأحاديث وتتسلط أجهزة الإعلام بالدعاية الموجهة ضد الخصوم من السـلف، وقد يجعلون منهم دعاة الرجعية والتخلف، وما أكثر ما قيل عن المنهج السلفى فى هذا الصدد.

وينبغى ألا نعفى أتباع المنهج السلفى من مسئوليتهم عن ذلك، لأسباب كثيرة لا داعى للتفصيل فيها الآن، ولكن هذه حقيقة ينبغى أن تعرف. فلقد أساء أدعياء المذهب إلى السلفية أكثر مما أحسنوا، أحياناً عن جهل بالمنهج وأصوله وقضاياه، وأحياناً بسلوكهم الشخصى الذى يدعـو إلى التنفير والترهيب أكثر مما يدعو إلى التقريب والترغيب، وعـلى رأس هذه الأسباب استفراغ وقتهم وجهدهم فى الخلاف حول شكليات وفروع وإهمالهم لأساسيات وأصول، وهذا مما يدمى القلوب ويحـزن الـنفوس معـاً أن يجـد المخـالفون عند اتباعه الأسباب والمـبررات للتشـنيع على سلف الأمة والافتراء عليهم بما لم يقولوه ولم يدر بخلدهم يوماً ما.

مدارك العقول

عالم الغيب وعالم الشهادة

يتصل الحديث عن هذه القضية بنظرية المعرفة من جهات مختلفة :

(١) فهو يتصل بها من حيث وسائلها

(٢) ومن حيث موضوعها، ومن حيث غايتها، وليس من قصدنا الحديث هنا عن نظرية المعرفة

(٣) من حيث هى كهدف مقصود لذاته فى هذه الدراسة فإن ذلك له مجالات أخرى، ولكن الذى نقصده بالدرجة الأولى هو تحديد علاقة العقل بموضوع المعرفة وغايتها من جانب، وعلاقته بوسائلها من جانب آخر.

ولقد آثرنا استعمال هذا المصطلح "مدارك العقول" لما فيه من دلالة على تمكن العقل من موضوع المعرفة وسيطرته عليه، واحتوائه لها، مما لا نجده فى غيره من المصطلحات المعرفية الأخرى، وهذا المصطلح يطرح علينا مباشرة الحديث عن موضوع المعرفة التى هى "مدارك العقول".

فقد يكون موضوع المعرفة هو عالم الشهادة وما يشتمل عليه من ظواهر ومظاهر.

وقد يكون موضوع المعرفة لا ينتمى إلى هذا العالم الحسى، ولا يمت إليه بسبب كعالم الغيب ، ونريد هنا أن نتعرف على مدارك العقل لهذين العالمين، عالم الشهادة، وعالم الغيب. ودور العقل فى التعرف على كل منهما.

(جـ)

وظيفة العقل في عالم الشهادة

عالم الشهادة وهو المقابل الشرعي للعالم الحسي والمحسوسات لدى علماء المناهج أو المعرفة الحسية، وينطلق موقفنا هنا في تحديد علاقة العقل بعالم الشهادة من توجيهات القرآن الكريم التي تجعل النظر العقلي والتأمل في آيات الله أفقية كانت أو نفسية مطلباً شرعياً وواجباً دينياً على سبيل الفرض الكفائي أحياناً، وقد يرقى في بعض الأحيان إلى مستوى الفرض العيني على شخص بذاته، أو على جماعة معينين بذواتهم، حيث يلزمهم ولي الأمر ويجبرهم على أداء هذه الوظيفة التي تعينت عليهم والتي لا ينهض بها سواهم، حتى تستقيم أحوال الأمة بها، ومن حق ولي الأمر أن يعاقبهم – أفراداً كانوا أو جماعة – إذا لم ينهضوا بهذه المسئولية التي أصبحت بمثابة الدين الواجب الأداء، كما إذا تعين على جماعة ممارسة مهنة الطب أو صناعة الأسلحة للجيوش، أو فن الهندسة أو القيام بخدمات أخرى لا ينهض بها سواهم.

والقرآن الكريم يحث العقل ويدفعه دفعاً إلى التعرف على هذا الكون واكتشاف قوانينه، ومعرفة خصائصه والتعرف على العلاقات المتبادلة بين أنواعه وأجزائه للوقوف على خصائص العلاقات

السببية الكامنة فيه، لأن ذلك كله يرتبط برسالة الإنسان فى هذا الكون والهدف من وجوده، واستخلافه فى الأرض وتنفيذه للأمر القرآنى باستعمارها.

وهذه المهام لا تتم للمسلم إلا باكتشاف قوانين الأشياء ومعرفة العلاقات السببية فيها، ليستطيع أن يحقق فيها المعنى الإلهى المقصود من تسخير هذا العالم من سمائه إلى أرضه لصالح الإنسان.

ولقد شاع العلم بهذه الآيات القرآنية التى تأمر العقل بالنظر والتأمل، وأصبحت معروفة للعامة والخاصة، ولذلك سوف أعفى نفسى من سردها فى هذا المختصر، ولكن الذى يلفت النظر وأنبه إليه أن منهج القرآن فى سوق هذه الآيات كان يأخذ بمبدأ التدرج والترقى من مستوى معرفى إلى مستوى آخر أرقى وأدق، ويفتح أمام العقل مجالات للنظر وآفاقاً أرحب للتأمل كان يجهلها العقل من قبل، لتكون مسرحاً لنظره العقلى وعمله الفكرى، فالكون كله قد أعده الخالق سبحانه وجعله مهيأً للنظر العقلى ليجعل منه حبلاً ممدوداً وسبباً موصلاً بين الإنسان العارف وموضوع المعرفة من جهة وغاية هذه المعرفة وهدفها من جهة أخرى، ولذلك كانت آيات القرآن المتصلة بهذا الموضوع تختم غالباً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. أو ﴿ قَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾..

١- ونجد آيات القرآن فى هذا الصدد تأمر الإنسان بالنظر إلى البيئة التى يعيش فيها الإنسان وما فيها من أصناف الموجودات من

حيث كيفية الصنعة، دقة وإتقاناً، فنقول له : ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧: ٢٠]

والسؤال فى هذه الآيات يدور حول كيفية الصنعة وليس عن وجودها. والفارق كبير بين مضمون السؤالين؛ فالسؤال عن كيفية الصنعة لا يملك الإجابة عنها إلا صانعها أو من كان فى مستواه من العلم بكيفيتها والغاية والقصد منها.. ولذلك فإن النظر العقلى هنا يدرك من مضمون السؤال حسب استطاعته فقط. فهو يدرك منها ولا يدركها، لتبقى القضية كلها فى نطاق الإعجاز من جانب ومطلباً شرعياً للعقل من جانب آخر.

٢- وأحياناً يطلب القرآن من العقل ألا يكتفى بمجرد النظر إلى هذا الكون بل لابد أن يخترق ظواهره ليكتشف ماذا فى داخله، قال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١] ومعلوم أن الأمر بالنظر فى الشيء أعلى درجة من مجرد النظر إلى الشيء، فليصعد الإنسان إلى القمر – إن شاء – أو إلى ما شاء من الكواكب، وليهبط – إن شاء – فى باطن الأرض مكتشفاً وباحثاً فإن ذلك كله مطلب شرعى فى منهج القرآن، لأن رسالة الإنسان فى الكون واستعمار الأرض لا تتم إلا بذلك، وحين يخاطبنا القرآن بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ

الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فيها﴾ [هود : ٦١] فإنه يطلب منا بصيغة الأمر أن نعمل على عمارة الأرض بكل ما نستطيع، والتقصير فى تنفيذ هذا الأمر معصية جماعية تجنى الأمة ثمرتها فقراً ومرضاً ومذلة وهواناً وتخلفاً وتبعية لأمم الأرض.

وحين يذكرنا القرآن بأحوال الأمم السابقة وكيف جرت عليهم السنن الإلهية فى الكون من ازدهار للحضارات أو انهيار لها، فإن ذلك كان على سبيل التعليم والإفادة من الدرس والعبرة من التاريخ، ليكون تاريخ الإنسان نفسه مجالاً رحباً لعمل العقل ليتعرف منه على أساس ازدهار الحضارات وانهيارها، ليعى العبرة من قص القرآن لهذه السنن وعلاقتها بالأفراد والجماعات. فالكون كله مسرح للعقل وميدان لعمله، وتاريخ الإنسان كله مسرح لنظر العقل، والعقل مهيأ للسيطرة الكلية على الكون واحتواء تاريخه، فكراً وتأملاً، مقدمات ونتائج، علاقات بين الأشياء، أسباب ومسببات، تسخيراً وتوظيفاً، وتلك مهمة العقل ووظيفته فى عالم الشهادة، وذلك واجبه الشرعى الذى ندبه القرآن له وحثه عليه وأمره به.

وليس من قبيل المصادفة أن يلفت القرآن نظر المسلم إلى بعض آيات بعينها من آيات الله فى كونه جعلها اسماً وعلماً على بعض سور القرآن، وكأنه يقول للعقل فى هذه اللفتة : تلك قضية تحتاج إلى نظر وتدبر، وقد يقرأ المسلم هذه الآيات دون أن يعيرها

حقهـا مـن النظر والتدبر مع أنها تحتاج من القارئ أن يقف أمامها طويـلاً وطويلاً، لأنها جاءت بصورة شاملة لكل أنواع الموجودات غالباً.

١- فهـناك آيات تنتمى إلى عالم الحشرات جاءت علماً على بعض السور للقرآن، مثل سورة النحل، سورة النمل، سورة العنكبوت.
٢- وهـناك آيات تنتمى إلى عالم الأفلاك والطبيعة كانت علما على بعـض سـور القرآن، مثل سورة الشمس، سورة القمر، سورة الرعد.
٣- وهناك آيات تنتمى إلى عالم النبات، مثل سورة التين والزيتون.
٤- وآيات تنتمى إلى عالم الحيوان، مثل سورة البقرة، سورة الأنعام.
٥- آيـات تنتمى إلى عالم الزمان وبعض أوقاته، مثل سورة الليل، سورة الضحى، سورة العصر. سورة الفجر
٦- آيات تعبر عن الكون كله، سورة الملك.
٧- آيات تعبر عن أصل الإنسان فى بعض مراحله: سورة الإنسان.

ويقسم القرآن ببعض الآيات تنبيهاً للعقل إلى أهميتها فى حياة الإنسان وإلى ضرورة الاهتمام بها فكراً وتأملاً وتوظيفاً :

﴿فَـلا أُقْسِـمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة : ٦٧، ٧٦].

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وما لا تبصرون﴾ [الحاقة : ٣٨].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧، ١٨].

﴿ فَــلا أُقْسِــمُ بِالشَّفَقِ، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق : ١٦-١٨].

هــذه بعض آيات الله فى كونه التى يستحث العقل ويدفعه دفعاً للــنظر والــتأمل فيها، وهذا الكون هو عالم العقل ومسرحه الحسى الذى يملك العقل أدوات التعامل معه، ويستطيع السيطرة عليه إن شاء على قدر استطاعته، يجعل القرآن عمل العقل فيه وتعامله معه مطلباً شــرعياً وواجــباً دينياً وعبادة يتقرب بها إلى الله يعاقب المجتمع كله على التفريط فيه أو الإعراض عنه.

ومــن الأمور اللافتة للانتباه أن الآيات السابقة تتسع دائرتها لتشــمل الكــون كله من عالم الأفلاك إلى عالم النبات وعالم الجماد، فــليس فى الكــون ما هو غريب على العقل، وليس فيه ما هو فوق مســتوى الإدراك العقــلى، أو يعــز عــلى العقل مناله، فالكون كله موضــوع بحــثه وموضوع كده وكَبَده، وحين يعمل العقل ويستفرغ وســعه بحثاً وفكراً وتأملاً يكون حينذاك فى عبادة شرعية لله، وكلما ازداد عمله وعلمه ازداد لله خشية ومن الله قرباً. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وينبغى أن يبدأ توظيف العقل فى عالم الشهادة من هذا المنطلق القرآنى، ومن خلال تحديد القرآن لوظيفته فى هذا الكون: لقد ندبه للنهوض بها وأتمنه عليها، وطلب منه إعمار الكون تبعاً لهذا المنهج باكتشاف القوانين، والتعرف على العلاقات السببية الكامنة فى الأشياء، ليسخر الكون كله لخدمة الإنسان وتحقيق مصالحه، وليحقق فى ذلك معنى الاستخلاف عن الله فى الأرض.

ومن جانب آخر فإن النكوص عن أداء هذه الوظيفة إهدار لطاقة العقل وضياع لرسالة الإنسان، وجريمة فى حق الدين والدنيا معاً، وعلاقة العقل بعالم الشهادة على هذا النحو السابق تقوم على أسس معينة يعتبرها القرآن أركاناً لتكليف العقل بهذه الوظيفة، بحيث إذا تخلف ركن منها سقط عن الإنسان ما يقابله من التكاليف الشرعية.

١- إن العقل يملك القدرة المؤهلة له للتعرف على هذا العالم واكتشاف قوانينه وتحديد العلاقات السببية بين أنواعه، ليجعل منه مملكته التى استخلفه الله عليها.

٢- إن الله تعالى قد زود الإنسان بالحواس الخمسة، وجعلها جنوداً للعقل يتعرف بها على كل محسوس ، وفى نفس الوقت هى مناط مسئولية الإنسان أمام الله يوم القيامة، إذا أساء استعمالها أو أهمل توظيفها ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ

مَسْـئُولا﴾ [الإسـراء : ٣٦]. والـتكاليف الشرعية منوطة بهذه الأدوات المعرفية وجوداً وعدماً، فإذا تخلف واحد منها سقط عن الإنسان ما يقابلها من التكاليف الشرعية، ولذلك كان من القواعد الأصـولية: إذا أخـذ ما وهب سقط ما وجب. وقال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

٣- هـذه الحواس هى روافد المعرفة العقلية عن عالم الشهادة، هى جواسـيس العقـل وعيونه حسب تعبير الغزالى وبدون هذه الجواسيس لا يستطيع العقل أن يعلم شيئاً يقينياً عن عالم الشهادة، فمـن فقد حاسة البصر فاته العلم بعالم المرئيات، ومن فقد حاسة السمع فاته العلم بعالم المسموعات وهكذا شأن بقية الحواس.

فكل حاسة مسلطة على عالم معين تتعرف عليه وتنقل إلى العقل إحساسها بهذا العالم المعين.

حاول - أيها القارئ - أن تتخيل معى إنساناً خلقه الله بدون هذه الحـواس الخمسة. ماذا يمكن أن يتكون لديه من معلومات يقينية عن هذا العالم الحسى؟. ولذلك كان من الأصول المعرفية أن من فقـد حساً فقد علماً، فمن العبث أن تسأل الأعمى عن الفرق بين الأسود والأبيض، أو تسأل الأصم عن الفرق بين صوت الإنسان وصـوت الحمـار، وهذا المعنى يصدق على من يملك الحواس لكـنها تعطـلت عن العمل لوجود الآفة بها أو وجود مانع قوى كالمـريض بالصفراء مثلاً فإنه قد يحس طعم العسل مراً والذى

على بصره غشاوة قد يرى الأشياء على غير ما هى عليه، فيرى الصغير كبيراً والكبير صغيراً.

٤- أن مـا غـاب عن حواس الإنسان وتجربته الشخصية، فى هذا العـالم فقـد غـاب عن العقل العلم اليقينى به عن هذا الطريق، طـريق الـتجربة الحسـية، لكن قد يعلمه عن طريق آخر غير تجربـته هو، كأن يعلمه عن طريق خبر المعصوم مثلاً أو عن طـريق مـا تواتر العلم به عن الأمم السابقة.. إلى غير ذلك من طـريق العـلم الأخرى. فكل ما ثبت صدقه عن طريق تجريب الغيـر لـه وتـم العلم به لزم الأخذ به والعمل بمقتضاه ممن لم يجـرب بنفسـه، وهذا فى عالم الشهادة معلوم بالاضطرار من كل أحد.

فالمـريض لا يسـوغ له أن يمتنع عن تناول الدواء الذى وصفه الطبيب بدعوى أنه لم يجربه قبل ذلك بنفسه، والأعمى لا يسوغ لـه أن ينكر ضوء الشمس بحجة أنه لم يره بنفسه. وهكذا يتواتر العـلم لدى العامة والخاصة بكل ما ثبت صدقه مما جربه غيرنا ولـم تدركه حواسنا، وأصبح العلم به والعمل بمقتضاه لازماً لنا لزوم ما جربناه بأنفسنا وأدركناه بحواسنا، ولا فرق فى ذلك بين مـا جربه الشخص بحواسه وما جربه غيره، فالأخذ بكل منهما ضرورة عقلية كمصدر من مصادر المعرفة.

ويدخل تحت ما جربه غيرنا العلم بأخبار الأمم الماضية، والأخبار المتعلقة بالعصر الذى نعيشه مما لم يقع منه تحت حواسنا، وما جربه غيرنا منها، كالعلم بسور الصين العظيم، وأن الكعبة في مكة وأن الهرم الأكبر بالجيزة فى مصر وكالعلم بنبوة الأنبياء السابقين..

ومما ينبغى أن يعلم أن هناك أموراً كثيرة يقتصر العلم بها على مجرد الإخبار عنها فقط لأن الحواس لا تنالها بسبب غيابها عن الحواس، وليس لنا طريق إلى العلم بها إلا الخبر المتواتر، وهذا يشمل علمنا بتاريخ الإنسانية كله فإنه لم ينقل إلينا إلا عن هذا الطريق، ومن العبث إنكار تاريخ الأمم الماضية بدعوى عدم التجريب أو عدم السماع له.

(د)

علاقة العقل بعالم الغيب

سبق أن أشرنا إلى علاقة العقل بعالم الشهادة وأنها مؤسسة على إدراك كامل بطاقة العقل وإمكاناته والعلم بوظيفته، وسبق أن بينا أن الإنسان لو فقد حاسة من حواسه الخمسة فاته العلم بالعالم الحسى المقابل لها. ولو تخيلنا إنساناً خلق بدون هذه الحواس فإنه لا يعلم شيئاً عن هذا العالم على سبيل اليقين.

واليقين هنا مطلب أساسى لهذا اللون من المعرفة بعالم الغيب، لأن العقل قد يتخيل أموراً وعوالم كثيرة لا نصيب لها من الواقع والخيال العلمي له دوره المعرفى فى عالم الشهادة، ولا سبيل إلى إنكاره، لكن ينبغى أن نعرف هنا أنه لما غابت الحواس عن العقل تخلف عنه العلم اليقينى بعالم المحسوسات، لأن روافد المعرفة الحسية أصبحت مفقودة بالنسبة له فانتقل المستوى المعرفى للشخص من اليقين إلى التخيل. هذا فى عالم الشهادة. أما فى عالم الغيب فإن الأمر يختلف تماماً عن ذلك، لأن الحواس لا تناله أصلاً ولا سبيل لها إليه، وبالتالى فإن روافد العقل التى تزوده بالمعرفة بعالم الغيب مفقودة، والتخيل العقلى هنا ليس مطلوباً، لأن مطلوب المعرفة، هنا هو اليقين الجازم الذى لا مجال فيه للتخيل . وينبغى أن نفرق هنا بين مستويين لمعنى الغيب.

مستويات الغيب

أ- غيب نسبى :

هناك ما يسمى بالغيب النسبى وهو ما غاب عن الحواس فى عالم الشهادة ويدخل فى ذلك الماضى والمستقبل فكلاهما غيب بالنسبة للحواس، وكذلك الأمر بالنسبة للحاضر، فهو غيب بالنسبة لمن لم يشاهده، لكنه ليس غيباً لمن عاصره وعاشه. فهناك أمور معاصرة للشخص المعين لكنه لم يشاهدها لغيابه عنها فتكون غيباً بالنسبة له وليست غيباً لمن شاهدها، والشخص الواحد قد يكون الأمر المعين غيباً بالنسبة له فى وقت دون آخر، وهكذا شأن الإنسان فى عالم الشهادة، فالغيب بالنسبة له أمر نسبى إضافى ، قد يكون الأمر غيباً بالنسبة لشخص دون شخص، وقد يكون الأمر غيباً للشخص الواحد فى وقت دون وقت، وعلاقة العقل بهذا النوع من الغيب النسبى متفرع عن علاقته بعالم الشهادة، فما غاب عنا وجربه غيرنا لزمنا العمل بمقتضاه عند العلم به.

وما تواتر العلم به عن الأمم الماضية من أخبار الأنبياء عنهم هو مما يلزم العلم به، وما يتنبأ به العلماء بناءً على المشاهدات العلمية المتكررة هو من هذا القبيل بناء على اطراد السنن الإلهية فى الكون سواء تعلقت هذه السنن بالظواهر الطبيعية أو بالمجتمعات البشرية، لأن سنة الله فى كونه لا تتخلف إذا وجد المقتضى وارتفع المانع، وهذا هو محل اعتبار الإنسان الذى ندبه القرآن إليه فى نهاية

كــل قصـــة يقصـــها عن الأمم الماضية حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْتَـــبِرُوا يَــا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [يوســف: ١١١]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ تكررت كـــثيراً فى سورة الشعراء. هذه التعقيبات القرآنية على قصص الأمم الماضية تلفت نظرنا إلى الغرض من سوق هذه القصة أو تلك ليقوم العقــل بوظيفـــته فيها فكراً وتأملاً واعتباراً. وذلك ما ندبه الشرع له وحثه عليه.

ب- الغيب المطلق :

وهو ما لا سبيل للعقل إلى العلم به عن طريق الحواس بحال ما، أو هو ما استأثر الله بعلمه وحجبه عن جميع خلقه، قال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ﴿ قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ﴾ [النمل : ٦٥].

أ- والغيـــب قد يطلق فى القرآن الكريم ويراد به مكنون العلم الإلهى الـــذى اســـتأثر الله به عن سائر خلقه، يستوى فى ذلك الرسول والنـــبى والـــولى. إلا من شاء ربك منهم فيعلمه الله ما شاء من عـــلمه كيف شاء، كما قال تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. فهـــذا العـــلم الإلهى غيب عن الإنسان لا ينال بحس ولا عقـــل، ولا سبيل إليه إلا بالتعليم الإلهى لمن شاء من عباده عن طريق الوحى أو الرؤيا أو الإلهام، فهو ليس اكتساباً ولكنه وهب

وعطاء، لا مدخل لروافد العقل المعرفية إليه، ولكن هناك أبواب أخـرى لتحصيل هـذه المعرفة يدخل منها أهلها ويسعى إليها عشـاقها، كمـا فى قولـه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١] فهـذا العـلم لا ينال بكسب عقلى ولا يتخيله عقل ولا يناله وهم، وإنما يتعلم من الله بطريقه المعروف ووسائله المشروعة.

ب- وقـد يطـلق الغيـب فى القرآن الكريم ويراد به الذات الإلهية وصفاتها وعلى ذلك كثير من المفسرين فى قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢، ٣]. فقالوا : إن الغيب هنا هو الله، نقل ذلك ابن تيمية عـن جماعة من الحنابلة منهم القاضى أبو يعلى وابن عقيل وابن الـزاغونى(١)، وخـالفهم فى ذلك جماعة آخرون رفضوا إطلاق لفظ الغيب على الله.

ويبدو أن الخلاف فى هذه المسألة خلاف لفظى. ذلك أن الذين أجـازوا إطلاق لفظ الغيب على الله، رأوا أن الخلق يغيبون عن الله فى معظـم أحوالهم، فلم يذكروه ولم يعبدوه ولم يشهدوه فى أفعالهم، فهـو سبحانه ليس بنفسه غائباً عنهم حفظاً ورزقاً ولطفاً وعوناً، وإن كانوا هم غائبين عنه إنابة وتوكلاً، وذكراً وعبادة.

---

(١) راجع دقائق التفسير ٢٠٢/١، منهج القرآن فى تأسيس اليقين، ص٤١.

فالمعــنى المقصود فى استعمال لفظ الغيب على الله هو انتفاء شهود الخلق له فى معظم الأحوال، وهذا صحيح وواقع.

أما الذين رفضوا إطلاق لفظ الغيب على الله فكان قصدهم أنه حاضــر مــع كل كائن فى كونه ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِــيمٌ﴾ [المجادلــة : ٧]. فهو سبحانه مع خلقه علماً ورزقاً ولطفاً وإحيــاء وإماتــة، وهو سبحانه لا يعزب عنه مثال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، ولا أصــغر مــن ذلك ولا أكبر، فهو سبحانه شهيد عــلى العباد رقيب عليهم، ومع كل كائن فى كونه بهذا المعنى، فهم الغائــبون عنه، وليس هو الغائب عنهم، ولذلك لا يجوز إطلاق لفظ الغيب على الله. وهذا المعنى صحيح أيضاً.

وعــند التحقيق لا نجد خلافاً بين أصحاب الرأيين. فأصحاب الرأى الأول يجيزون استعمال لفظ الغيب على الله لغياب الخلق عنه، وأصــحاب الــرأى الثانى يرفضون ذلك لأنه سبحانه ليس غائباً عن الخــلق وإن كــان الخلق غائبين عنه. وكلا الرأيين صحيح على هذا التفسير. فصارت المسألة خلافاً لفظياً فقط.

(هـ)

معرفة الغيب بين منهجين

والسؤال الذى ينبغى أن نطرحه الآن، هو: ما موقف العقل من التعرف على عالم الغيبيات وقضاياه؟ إن العقل مطالب هنا بالإيمان بالغيب، سواء استعملنا لفظ الغيب مراداً به معلومات الله التى لا تتناهى والتى حمل إلينا منها أنبياء الله ورسله أو أردنا به الذات الإلهية وصفاتها، واليوم الآخر والبعث وقضايا السمعيات عموماً؟

لقد سبق القول بأن الذى فقد حواسه يستطيع أن يتخيل فى عالم الشهادة ما يشاء لأن عالم الشهادة محسوس، والعالم الذى يريد التعرف عليه هو أيضاً محسوس، فالتخيل بالنسبة له ممكن، ولكن تظل معرفته بهذا العالم معرفة تخيلية لا ترقى إلى اليقين، ولا ضير أن يحدث ذلك فى عالم الشهادة، بل قد يكون ذلك مطلوباً فى بعض الأحيان أن يتخيل الإنسان مستقبله على نحو ما، ولكن الإيمان بالغيب لا يكفى فيه التخيل ولا الظن. بل لابد فيه من اليقين الجازم الذى لا يخالطه شك. ولا يرقى إليه ريب؟

والإجابة على السؤال السابق تحمل معالم المنهج المطلوب فى علاقة العقل بعالم الغيب، وفى نفس الوقت تضع أمامنا حقيقة

الخــلاف بيننا وبين منهج المخالفين فى الإيمان بقضايا الغيب فلاسفة كــانوا أو متكلمين قدامى كانوا أو معاصرين. وهذا يفسر لنا بالتالى ســبب الحملة التى شنع بها المخالفون على منهج السلف واتهموهم خلالها برفض العقل وأحكامه.

إن قضــية الإيمــان بالغيب هى محك الخلاف بين المنهجين: مــنهج عــرف أصحابه للعقل إمكاناته وطاقاته من جانب، وعرفوا أيضــاً مطلب الشرع والوحى من العقل والوظيفة التى ناطه بها من جانب آخر.

أمــا المنهج الثانى فأطلق أصحابه العنان لعقولهم. فلم يعترفوا بإمكاناتـــه ولا طاقاتـــه، بل قالوا إن العقل قادر على أن يخضع كل شيء لسلطانه ما غاب عنه وما حضر، ما أدركته الحواس وما غاب عــنها، حتى ما أخبرت به الأنبياء عن عالم الغيب وقضاياه يجب أن يخضع العلم به وبكيفيته لسلطان العقل.

ولا مــانع عندهم أن يتخيل العقل ويخلق لنفسه عالمه الغيبى الخاص به.

ولا مــانع أيضاً عندهم من رفض هذا العالم الغيبى وإنكاره. ولــم يفــرقوا فى ذلك بين مطلب الشرع من العقل فى عالم الشهادة ومطلــبه من العقل فى عالم الغيب، والخلاف بين الموقفين يكمن فى المنهج أولاً.

إن أصـــحاب المـــنهج الأول وظفـــوا العقل فيما خلق له في الـــتعرف عـــلى عـــالم الشهادة، وعرفوا له قدره وحدوده فى مجال الـــتعرف عـــلى عالم الغيب، عرفوا أن العقل فى عالم الشهادة مسلط لاكتشـــاف الكون وقوانينه، وهو فى عالم الغيب متعلم يأخذ العلم من مصـــادره الـــتى غـــاب عنها أو غابت عنه والتى جاء الخبر عنها، معصوماً عن معصوم عن الله سبحانه، عرفوا أن العقل يملك البحث والـــتعرف عـــلى عالم الشهادة. لكنه يفقد جميع الأدوات التى يتعرف بهـــا عالم الغيب إلا مصدراً واحداً هو الوحى الذى هو إخبار الله عن ذاته بذاته على لسان رسوله، هذا إذا كان للعقل أن يدعى الإيمان بما جـــاء به الرسول. أما إذا كان العقل رافضاً الأخذ عن الرسول ابتداء فهذا له شأن آخر وليس لنا معه هنا من حديث.

أما أصحاب المنهج الثانى فلم يفرقوا فى ذلك بين عالم الشهادة وعـــالم الغيب فى علاقة العقل بكل منهما. ونسوا فى ذلك أن روافد المعـــرفة العقلية إلى عالم الشهادة يمتلك العقل أدواتها وهى الحواس الخمسة. أما بالنسبة لعالم الغيب فلا يملك من أدوات التعرف عليه إلا الجهل المطبق، أو التخيل، أو التوهم، أو الظن. وكل هذه المستويات المعرفية لا تغنى فى مجال الإيمان شيئاً.

والسؤال الآن: أى المنهجين أكثر احتراماً للعقل.. وأيهما أكثر عقلانية، أن نأخذ الحديث عن الغيب وعن الله مأخذ التصديق به كما

جـــاء به الوحى أم نتخيل له كيفيات عقلية لسنا مطالبين بها أولاً، ولا سبيل لنا إلى العلم بها بالحواس ثانياً؟

إن القضية هنا تتعلق بتصديق الرسول فى كل ما أخبر به عن عالم الغيب أو عدم تصديقه.

فـــإذا كـــان المخاطب بذلك مؤمناً بمحمد (ﷺ) وبرسالته وأنه صــــادق فى الحديث عن الله وبما أنزل الله ، فلا شك أن كل ما أخبر به الرسول عن قضايا الغيب يكون عنده حق لا مرية فيه. ولا يجيز لـــلعقل أن يتدخل فى ذلك بالتخيل أو التوهم لكى يتأول النص الإلهى على ما تخيله بعقله أو توهمه بظنه.

أمـــا إذا لـــم يكن له من الإيمان بنبوة الرسول نصيب، فيكون الحديث معه أولاً فى تثبيت النبوة وعن دلائل صدق النبى فيما أخبر بـــه عن الله. فإذا ما ثبت عنده صدق النبى فى كل ما أخبر به، يكون ذلـــك وحـــده مدخـــلاً صحيحاً لتسليم العقل بما أخبر به الرسول عن الغيبيات.. خاصة إذا عرفنا أن قضايا الغيب لم يطلب الشرع منا أن نبحث فيها لا كماً ولا كيفاً، ولكن طلب منا الإيمان بها على ما أخبر به الرسول فقط. ولذلك فإن السلف قد دونوا معالم المنهج وأصوله – خاصـــة فيما يتصل بالغيبيات ، وكانوا لا ينقلون من الأحاديث إلا ما صح عندهم عن الرسول، ولا من الآثار إلا ما له نسب إلى الرسول أو إلى أحد صحابته رضوان الله عليهم، وإذا أرادوا شرح آية أو بياناً

لحديــث يتعــلق بالغيبيات شرحوا ذلك بالآثار المروية عن الرسول وليس بما يمكن أن يفهمه العقل منها.

يقــول الإمام أحمد : نؤمن بها ونصدق بها ولا نرد منها شيئاً إذا كانت بأسانيد صحاح[١].

وقــال فى موضع آخر : أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر وكل ما روى عن النبى بأسانيد جيدة نؤمن بها ونقره[٢].

وقــال ابن عيينه، هى حق نرويها على ما سمعناها ممن نثق بــه ونرضــى به. وقال أبو عبيد : إن هذه الأحاديث يرويها الثقات بعضــهم عن بعض[٣] وحين يروى السلف هذه الآثار النبوية ليؤكدوا بهــا قضية من القضايا الإيمانية لم يغلقوا الباب أمام العقل أن يعمل ويــنظر ويــتدبر الأثــر النبوى أو الآية القرآنية لكن بشرط ألا يقدم نظــره عــلى الآية أو الحديث ويجعل ذلك أصلاً له يتأول عليه الآية القــرآنية لتوافق أصوله من المعقولات، لأن فى ذلك آماناً من الزلل والضــلال خاصــة أننا لم نكلف من الشرع فى قضايا الغيب سوى الإيمان بما ورد عنه فقط.

يقــول اللالكائى: فمن أخذ فى هذه المحجة وداوم بهذه الحجج عــلى مناهج الشريعة أمن فى دينه التبعة فى العاجلة والمساءلة فى

---

(١) شرح أصول أهل السنة، اللالكائى : ١ / ٥٤.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.

الآجلة.. ومن ابتغى فى غيرها مما يهواه أو يروم سواها مما تعداه أخطأ فى اختيار بغيته وأغواه، وسلكه سبل الضلالة وأرداه، فيما يعترض على كتاب الله وسنة رسول الله بضرب الأمثال ودفعهما بأنواع المحال، والحيدة عنهما بالقيل والقال.. مما لم يعرفه أهل التأويل واللسان ولا خطر على قلب عاقل بما يقتضيه من برهان ولا انشرح له صدر موحد عن فكر أو عيان"(١).

إن الاعتصام بالنص الصحيح فى قضايا الغيب كان منهجاً أقوم فى منطق العقل نفسه، ذلك أن العقل مطالب بالإيمان به وفى نفس الوقت ليس مؤهلاً للبحث فيه كما هو شأنه فى عالم الشهادة. ولم يطلب منه الشرع البحث فيه، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ولا يكلفها إلا ما آتاها، وسبيله الوحيد إلى التعرف على الغيب هو خبر المعصوم عن الله، الذى قال لصحابته : "تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك.."(٢)، وفى القرآن الكريم: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وعن ابن مسعود: اتبعوا ولا تبتدعوا.

وكان أهل الحديث هم أحرص الناس على ذلك لاختصاصهم برسول الله (ﷺ) وطول ملازمتهم له، وحفظهم العلم النبوى عنه،

(١) السنة، ص ١٠.
(٢) حديث العرباض بن سارية مشهور رواه ابن ماجة فى المقدمة ص ٤٣؛ ورواه أحمد ١٢٦/٤؛ الحاكم وابن أبى عاصم فى السنة ٤٨، ٤٩.

وشـــدة تمســـكهم بما سمعوه ونقلوه عنه إلى الناس من بعدهم، وذلك بـــدون واســـطة بينهم وبينه ، فحفظوا عنه ووعوا واعتقدوا جميع ما سمعوا.

يقـــول الإمـــام اللالكائى فى كتابه السنة عن هذا المنهج: فهذا ديـــن أخذ أوله عن رسول الله (ﷺ) مشافهة لم يشبه لسان ولا شبهة، ثـــم نقله العدول عن العدول من غير تحامل ولا ميل، ثم الكافة عن الكافـــة والصافة عن الصافة والجماعة عن الجماعة. أخذ كف بكف، وتمســـك خلف بسلف ، الحروف يتلو بعضها بعضاً، ويتسق أخراها عـــلى أولاهـــا وصـــفاً ونظماً، فهؤلاء الذين تمهدت بنقلهم الشريعة، وانحفظـــت بهـــم أصـــول السنة. فوجبت لهم بذلك المنة على جميع الأمـــة. فهم حملة علمه، ونقلة دينه، وسفرته بينه وبين أمته، وأمناؤه فى تبليغ الوحى عنه.(١)

ومن أهم ما عنى به أصحاب هذا المنهج حرصهم على صفائه ونقائـــه، فلم يتأثروا فيه بمسلك الخصوم معهم، ولا بتشنيع المخالفين عليهم. فكانوا يكرهون مناظرة أهل البدع، ويتناهون عن نقل شبهاتهم أو عرضها على المسلمين مخافة الفتنة بها. يقول سفيان الثورى: من سمع بدعة فلا يحكها لجلسائه ، ولا يلقها فى قلوبهم.(٢)

---

(١) شرح السنة ، اللالكائى : ٢٣.
(٢) شرح السنة للبغوى ٢٢٧/١ نقلاً عن السنة للالكائى ٥٦٠.

وقال الإمام ابن بطه: لست ترد عليهم بشيء أشد من السكوت عنهم.(١)

وكان الإمام أحمد بن حنبل يعلم تلامذته ذلك المنهج، فلقد كتب إليــه تلامذته يستأذنه فى أن يضع كتاباً يرد فيه على أهل البدع وأن يحضـــر مـــع أهل الكلام فيناظرهم ويحتج عليهم. فكتب إليه الإمام أحمـــد، يقول: الذى كنا نسمع أدركنا عليه من أدركنا من أهل العلم، أنهـــم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزيغ وإنما الأمر فى التسليم والانتهاء إلى ما كان فى كتاب الله وسنة رسول الله (ﷺ) إلا فى الجـلوس مـــع أهل البدع والزيغ لترد عليهم فإنهم يلبسون عليك وهـــم لا يرجعون، فالسلامة إن تترك مجالستهم والخوض معهم فى بدعتهم.(٢)

ولقـــد شـــغب أصحاب المنهج المخالف من المعتزلة وغيرهم على أهل الحديث فى منهجهم وشنعوا عليهم، وكانوا ينتصرون عليهم بالسياســـة أحياناً كما حدث فى زمن محنة الإمام أحمد ، ونالوا منهم كثيراً، فنسبوهم أحياناً إلى الحشو وأحياناً إلى الجهل ومحاربة العقل، ولا يخـــفى الأمـــر على ذى فطنة، إذا انتصرت السياسة لمذهب أو رأى فالويل للمخالفين ولو كانوا على الحق المبين.

---

(١) الإبانة ٢/٣٦٥-٣٦٦ نقلاً عن السنة ص ٥٦.
(٢) نفسه ص ٥٧.

ولقــد صــور كــثير مــن علماء المذهب، الموقف الفكرى لــلمخالفين لهم، وأنه لا سند له من علم دينى ولا برهان عقلى، وأن المــنهج الــذى ســلكوه فى الغيــبيات منهج أخرق، فساده أكثر من صــلاحه. فقال: ... فهو راكض ليله ونهاره فى الرد على كتاب الله وســنة رسوله (ﷺ) والطعن عليهما، أو مخاصماً بالتأويلات البعيدة فيهمــا. أو مسلطاً رأيه على ما لا يوافق مذهبه بالشبهات المخترعة الــركيكة حــتى يتفق الكتاب والسنة على مذهبه وهيهات أن يتفق .. فهذه حاله إذا نشط للمحاورة فى الكتاب والسنة.

فأمــا إذا رجع إلى أصله وما بنى بدعته عليه اعترض عليها بــالجحود والإنكــار، وضــرب بعضــها ببعض من غير استبصار واســتقبل أصلهما ببهت الجدل والنظر من غير افتكار.. فما اغبرت أقدامهــم فى طــلب سنة، أو عرفوا من شرائع الإسلام مسألة، فيعد رأى أصــحابه حكمة وعلماً وحججاً وبراهين، ويعد كتاب الله وسنة رســوله حشوا وتقليداً، ويعد حملتها جُهالاً وبلهاء يرمون أهل الحق بالألقاب القبيحة.. ومقالتهم هذه لا تظهر إلا بسلطان قاهر أو بشيطان معاند فاجر يضل الناس خفياً ببدعته ، أو يقهر ذاك بسيفه وسطوته، أو يســتميل قلــبه بمالــه ليضله عن سبيل الله حمية لبدعته وذباً عن ضــلالته.. لقــد زعمــوا أنهم أكبر من السابقين فى المحصول وفى حقــائق المعقول وأهدى إلى التحقيق، وأحسن نظراً منهم فى التدقيق، وإن المتقدمين تفادوا من النظر لعجزهم ، ورغبوا عن مكالمتهم لقلة

فهمهـــم.. لقــد ابتدعوا من الأدلة ما هو خلاف الكتاب والسنة رغبة للغلـــبة وقهر المخالفين، ثم اتخذوها ديناً واعتقاداً بعد ما كانت دلائل الخصومات والمعارضات، وضللوا من لا يعتقد ذلك من المسلمين.. ومـــن خـــالفهم وســـموه بالجهل والغباوة.(١) هكذا يصور إمام السنة موقف المخالفين منهم وتشنيعهم عليهم.

ولقــد تـــناهى الســـلف فيمـــا بينهم عن منازلة خصومهم فى محـــاورة أو مـــناظرة أو مـــا شابه ذلك. خوفاً من استعمال الألفاظ المجمـــلة الـــتى يطلقونها فى النفى والإثبات والتى يلبسون بها الحق بالباطل، ليخدعوا بها جهال الناس.

ولقد أشار الإمام أحمد إلى ذلك الخطأ المنهجى عندهم فى أول كـــتابه "الـــرد على الجهمية" فقال: الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فـــترة مـــن الرســـل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى.. إلى أن قال: يـــنفون عـــن كـــتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهـــلين، الذيـــن عقـــدوا ألويـــة البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختـــلفون فى الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يقولون على الله وفى الله وفى كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه مـــن الكـــلام، يخدعون جهّال الناس بما يشبهون، فنعوذ بالله من فتن

(١) من كتاب السنة بتصرف ، ص١٨. المقدمة.

المضلين[1]. وعند تأمل هذين النصين نجد أن كلا منهما قد أشار إلى الأخطاء المنهجية التى يسلكها الخصم فى موقفه من السلف، وأن القضية عندهم ليست انتصارًا للعقل وأحكامه بقدر ما هى رفض لمنهج القرآن والاعتصام به.

ومن أبرز هذه الأخطاء المنهجية عندهم :

١- استعمال الألفاظ المجملة التى قد يلتبس فيها الحق بالباطل. فإن فى نفيها نفياً لبعض الحق. وفى إثباتها إثباتاً لبعض الباطل.

٢- يتركون المحكم ويتكلمون بالمتشابه من الكلام ليخدعوا جُهال الناس بأنهم أصحاب النظر العقلى بما يشبهون عليهم من الكلام.

٣- لجوءهم إلى التأويل لم يكن طلباً للحق فى ذاته. وإنما كان انتصاراً للمذهب وإبطالاً لرأى الخصم.

٤- التنفير من رأى المخالف باستعمال الألقاب المذمومة والتشنيع عليهم بالأكاذيب، كالحشوية والعجز والجهل ومحاربة العقل ورفض أحكامه.

٥- الاستعانة على المخالف بالسلطان وسيفه، بدلاً من الرجوع إلى الحق وأهله.

---

(١) درة تعارض العقل والنقل : ١٥٢.

وهـذه الأخطـاء السابقة التى أشرنا إليها ليست من باب الرد علـى الباطل بباطل مثله، وإنما هى تبيان لما فى الموقف الآخر من أخطاء في المنهج الذى ينسبه أصحابه إلى العقل. وينسبون إلى منهج غيرهم محاربة العقل.

ويتـبين مـن هذه الأخطاء التى أشرنا إليها مدى الخلاف بين المـنهجين فى قضـايا الغيب. منهج التعامل مع عالم الشهادة ودور العقل فى ذلك المنهج، وكيفية التعامل مع عالم الغيب ودور العقل فى ذلك. موقف العقل الذى اعتصم بالنص من منطق العقل نفسه، ورأى أنـه أكـثر أماناً وإيماناً فيما لا سبيل للعقل إليه بذاته. وموقف العقل المخـالف الـذى رأى أن الـتخيل العقلى، أو التوهم أو الظنون التى يصـلون إليهـا بالـتأويلات العقـلية كافية فى تحقيق معنى الإيمان بـالغيب. وسـوف تتضـح القضية أكثر فى حديثنا عن علاقة العقل بالوحى والشرع.

(٣)

بين العقل والوحى

لعل ما سبق يقودنا إلى الحديث عن علاقة الوحى بالعقل باعتبار أن كلا منهما وسيلة أو أداة من أدوات المعرفة، لكل منهما مجاله وميدانه الذى نجح فى الكشف عنه والتعرف عليه، وعلينا أن ندرك أنهما معاً وسيلتان للمعرفة، وكما أن العقل مسلط على عالم الشهادة فكذلك الوحى خاص بالتعرف على عالم الغيب، وليس من هدفنا الدخول فى تفصيلات هذه العلاقة فقد كفانا القدماء الحديث عنها ولكن نود أن ننبه هنا إلى أهم معالم المنهج فى هذه القضية. إذ يرتبط المنهج هنا بفهم طبيعة علاقة العقل بعالم الشهادة من جانب وعلاقة العقل بعالم الغيب من جانب آخر، وإذا عرفنا أبعاد علاقة العقل بعالم الغيب والفارق الكبير بينها وبين علاقته بعالم الشهادة فإنه يكون من اليسير فهم علاقة العقل بالوحى.

١- مما ينبغى أن نؤمن به إيماناً جازماً أن الله أنزل كتابه ليفهم ويتدبر، كما قال تعالى : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].. وقال ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد : ٢٤]. ولهذا فإن إقبال السلف على حفظ القرآن

وفهمه وحسن تدبره كان مجالاً للتنافس فيما بينهم، وحكى عن السلمى قوله: كنا نقرأ العشر آيات من القرآن ولا نتجاوزها حتى نعلم ما فيها من علم وعمل. وكان بين أصحاب الرسول، من هو حبر الأمة وترجمان القرآن. وكان أقرأهم زيد، وأعلمهم بالفرائض. وإذا اختلفوا فى شيء ردوه إلى فلان.

كل هذا دليل على عناية جيل الصحابة – ومن بعدهم جيل التابعين – بالقرآن حفظاً وفهماً وتدبراً، فكلهم لم يقصروا فى فهم ما حفظ من القرآن ولم يمتنع عن إعمال عقله فى فهم القرآن، بدليل أننا لم نقرأ آية من كتاب الله إلا وجدنا عنها نقولاً للصحابة عن الرسول (ﷺ).

٢- لم نقرأ عن الصحابة والتابعين الذين نقلوا إلينا أقوال الرسول وأفعاله أنهم توقفوا أمام آية أو حديث، وقالوا إن العقل يعارضها أو يرفضها، أو ينبغى تأويلها بصرفها عن ظاهرها، وإنما عملوا بالمحكم وآمنوا بالمتشابه، وقالوا ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ خاصة فيما يتصل بقضايا الغيب من هذه الآيات وفى مقدمتها آيات الصفات الإلهية التى هى محك الخلاف بين السلف ومخالفيهم وكذلك آيات البعث والحساب، كذلك لم يتساءلوا عن كيفية أى صفة من الصفات المذكورة فى الآية المعينة أو الحديث المعين. وإنما تلقوها بالقبول كما سمعوها عن الرسول (ﷺ).

٣- من الأصول المرعية هنا أن النص إذا صح سنداً ومتناً وفهماً لا يتعارض أبداً مع الدلائل العقلية الصريحة عن الشبهات والخالية من الشكوك.

ذلك أن العقل والنقل وسيلتان لتحقيق غاية واحدة هو الوصول إلى الحق، والتعرف عليه فى الأقوال والأفعال والاعتقادات، والوسائل التى تؤدى إلى غاية واحدة لا يعارض بعضها بعضاً وإنما يؤيد ويعاضد بعضها بعضاً. فكلاهما حق والحق لا يعارض الحق أبدا.

أما الذين يقولون بإمكان التعارض بينهما فتجد أحدهم يدعى أن ما معه من النقل صحيح، وقد يكون الأمر خلاف ذلك، وقد يكون النقل صحيحاً ولكن ما فهمه منه ليس فهماً صحيحاً. وكذلك تجد الآخر يدعى أن معه من الدلائل العقلية المعارضة للسمع ما يرد به نصاً صحيحاً وعند التأمل تجد أن ما معه ليس له من النظر العقلى الصحيح نصيب، وإنما هو شبهات فاسدة أو شكوك طارئة، سرعان ما تزول بالبرهان القطعى الصريح. أما أن يكون النقل صحيحاً والدليل العقلى صريحاً فهذان لا يمكن أن يتعارضا أبداً..

٤- يتفرع عن الأصل السابق أن الدليل النقلى الصحيح قطعى الدلالة والدليل العقلى الصريح هو أيضاً قطعى الدلالة. والدلائل القطعية

لا تـــتعارض . وإنما يتعارض منها ما هو ظني الدلالة أو ظني الثـــبوت ، وإذا قـــال الـــبعض إن معه دليلين – عقلي ونقلي – وظـــنهما متعارضين ينظر فيهما. أيهما كان قطعياً قدم وأخذ به، ويـــتأخر الظـــني ويرفض، ليس لكونه عقلياً و لا شرعياً ولكن لكونـــه ظنياً في دلالته، والظني لا يعارض القطعي ، وينبغي أن ننـــبه هـــنا إلى أن كثيراً مما يسميه الناس دلائل عقلية أو سمعية يعـــارض بعضـــها بعضـــاً ليـــس كثير منها يرقى إلى مستوى البرهان، وهذا متفق عليه، لأنه قد لا يكون دليلاً في نفس الأمر وإنما هو بحسب من يظنه كذلك.

٥- إن دلالـــة ما جاء به الشرع في باب الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصـــفاته واليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار.. إلخ – وهي مســـائل الخـــلاف الجوهـــرية بيـــن المؤمـــنين بـــالوحي ومعارضـــيهم قديماً لم يتنازعوا في دلالته على ما دل عليه من ذلـــك. والمتنازعون في ذلك لم يتنازعوا في أن السمع دل على ذلك أيضاً، وإنما تنازعوا هل عارضه من الدلائل العقلية ما يدفع موجبه أم لا؟

وإذا ظهـــر معـــارض له فأي الدلالتين تكون قطعية والأخرى تكون ظنية؟

وهــذا هو مثار الخلاف فى أمثال هذه المسائل. وقد عالج هذه القضــية أئمـــة كـــبار مثل ابن رشد فى كتابه فصل المقال فيما بين الحكمـــة والشـــريعة مـــن الاتصال كما وضع الإمام ابن تيمية كتابه العظيـــم: "درء تعـــارض العقل والنقل" لحسم هذه المشكلة بالأصول العقلية والنقلية معاً.

ولا يســتطيع أحد أن يطعن. فى جنس الأدلة العقلية، ولا فيما علم العقل صحته، وإنما تتجسد المشكلة فيما يدعيه البعض عقليات - ويـــردون من أجلها ما صح من نصوص الوحى القطعية - وهى فى حقيقـــتها ليست دليلاً فى نفس الأمر؛ وكل ما عارضوا به الشرع من هذه الأدلة قد تبين فساده فى العقل فضلاً عن معارضة الشرع له.

٧- والدليل لا يمدح ولا يذم لكونه عقلياً أو سمعياً، وإنما يمدح الدليل لكونـــه قطعياً فى الدلالة على مطلوبه، والدليل الشرعى لا يقابل بـــالدليل العقـــلى وإنما يقابل بالدليل البدعى المحرم. لأن الدليل العقلى الصحيح هو فى الأصل دليل شرعى دل عليه الشرع نصاً أو تنبيهاً وأشار إليه وأمر به الشرع وأوجب الأخذ به.

◈ مفهوم الدليل الشرعى :

وكون الدليل شرعياً يراد به ما أثبته الشرع ودل عليه بنصوصه الصحيحة.

ويـــراد به ما أباحه الشرع وأذن فيه. وهذا شامل للأدلة التى نبه إليها القرآن بالأمثال المضروبة فى أبواب التوحيد والعدل وإثبات الصـــفات، فتـــلك أدلة شرعية وعقلية يعلم المرء صحتها بعقله، فهى بـــراهين وأقيسة عقلية وهى مع ذلك شرعية نبه إليها الكتاب العزيز وأمر بها.

وإذا كـــان الدليل الشرعى لا يعلم إلا بخبر المعصوم كما فى إخـــبار الـــوحى عن الله وصفاته والبعث والحساب. كان ذلك الدليل شـــرعياً ســـمعياً، لأنـــه لا يعلم بطريق العقل وحده بل علم بطريق الـــنص، ويـــتميز بأنـــه شرعى وعقلى معاً، لأنه لا يوجد فى العقل الصريح ما يعارضه ، والشرع لم يحرم الدليل إلا لأمور خارجة عن مطلب الحق وقصده. الذى هو غاية الاستدلال وهدفه.

١- فقـــد يحرم الشرع الدليل لكونه كذباً فى نفسه، كأن تكون إحدى المقدمـــات باطـــلة، فإنـــه يكون كذباً، والله يحرم الكذب لا سيما عليه.. قال تعالى : ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف : ١٦٩].

٢- وقـــد يحـــرم الدليل لأن صاحبه يتكلم فيه بدون علم به، كما قال تعـــالى : ﴿وَلا تَقْـــفُ مَـــا لَيْـــسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣].

٣- وقد يحرم الدليل لكونه جدالاً بالباطل ، أو جدالاً فى الحق بعد ما تبين كقوله تعالى : ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف : ٥٦]. وقوله سبحانه : ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦].

ويتضح من هذا أن كل دليل كان قطعى الدلالة على مطلوبه هو فى حقيقة أمره دليل شرعى نبه إليه الكتاب العزيز، عرف ذلك من عرفه، وجهله من جهله، ولم يحظر الشرع جنس الأدلة العقلية أبداً ولا قال أحد من السلف بذلك. والنبى (ﷺ) أمر بالبرهان، وأمر بتعلمه حيث يجب ذلك، ودل على مجامع البراهين التى يرجع إليها غاية نظر النظار، وأهل العلم بالآثار النبوية يعلمون من ذلك ما يجهله غيرهم، شأنهم فى ذلك شأن أهل كل اختصاص كأهل الطب والهندسة فى تخصصاتهم المختلفة فإنهم يعلمون منها ما يجهله غيرهم.

٨- وينبغى أن نعلم أن العقل ليس أصلاً فى إثبات الشىء فى نفسه فلا يعطيه وجودا ولا ينفى عنه عدماً، كما يدعى ذلك بعض المتكلمين والفلاسفة، وإنما هو أصل فى علمنا بالشرع، ذلك أن الأشياء ثابتة فى نفسها سواء علمناها بعقولنا أو لم نعلمها، والشرع من هذا الباب مستقل بوجوده عن ادراك العقل له شأن كل الموجودات؛ فنبوة النبى ورسالته إلى الخلق ثابتة فى نفسها

سواء أدركتها عقول البعض أو لم تدركها، وعدم علم البعض بذلك. أو عدم ثبوت ذلك عند البعض، أو رفض البعض لما جاء به الرسول، كل ذلك لا يلغى أن النبوة ثابتة فى نفسها، ولا يلغى أن ما جاء به الرسول حق في نفسه.

فالعقل لم يعط الشرع صفة مدح لم تكن ثابتة له، ولم ينف عنه صفة ثم كانت ثابتة له كذلك. ولم يضف إليه من صفات المدح ما ليس فيه، ولم ينف عنه من الصفات ما ليس كذلك. وإنما علم العقل بالشرع على ما هو عليه. على ما نزل به الوحى، وعلى ما أخبر به الرسول، علم العقل من ذلك ما علم وجهل منه ما جهل.

والدعاوى العريضة التى يقول بها المخالفون من أن العقل أصل فى إثبات الشرع، أو أن العقل أساس الشرع أو غير ذلك من الأقوال فكلها تحتاج إلى تمحيص، لأن علاقة العقل بما هو موجود ليست علاقة إثبات للوجود أو منع له ونفى عنه، وإنما هى علاقة علم بالموجود على ما هو عليه في الوجود الخارجى، فالعقل لا يمنح وجوداً للمعدوم، ولا يمنع عدماً عن الموجود، حتى يقال إن العقل أصل فى إثبات الشرع، أو أن العقل أساس الشرع، ذلك أن العقل يعلم وجود الأشياء الموجودة بالفعل على ما هى عليه في الوجود، ولا يعلم وجود المعدوم إلا على سبيل التخيل؛ فكيف يقال العقل أصل أو أساس للشرع.

وهنا أمور تحتاج إلى مزيد من الإيضاح :

أولاً : إذا كان العقل أصلاً فى علمنا بالشرع فإن قضايا الغيب كالإيمان بالله والنبوة واليوم الآخر والصفات الإلهية، هى من الثوابت التى لا مدخل للعقل فيها إلا العلم بها فقط، على ما أخبر به الرسول عنها.. أما ما يتصل بحياة الناس اليومية من الشرعيات فى مسائل السياسة والاجتماع وما يتفرع عنهما؛ فهى محل اجتهاد العقول لتستنبط من الأحكام الشرعية ما يسد حاجات الناس اليومية المتجددة؛ وهذه التفرقة بين الثوابت والمتغيرات فى علاقة العقل بالشرع أمر على جانب كبير من الأهمية حتى لا تختلط الأوراق عند البعض، فيظن أن ما هو ثابت قابل للاجتهاد العقلى، أو أن ما هو من قبيل المتغيرات يثبت عند حدود وعصر معين أو اجتهاد فقيه معين.

ثانياً : إذا كان العقل أصلاً فى علمنا بالشرع، وظهر فى الشرعيات ما يعز على العقل فهمه ، فلا ينبغى للعقل أن يتهم الشرع أو يرده، ولا ينبغى للعقلاء أن يقولوا نحن نأخذ بدليل العقل ونرد دليل الشرع، بدعوى أننا لو رفضنا الأخذ بدليل العقل لكان ذلك قدحاً فى الشرع، لأننا عرفنا الشرع بالعقل ولو رددنا أحكام العقل الذى به عرفنا الشرع لكان ذلك رفضاً للشرع أيضاً. أو غير ذلك من المقولات التى نجدها فى بعض

الكـتابات قديمـاً وحديـثاً، لأن هذه الأقوال فيها من التمويه والمغالطـات الشيء الكثير، ذلك أن علاقة العقل بالشرع هي علاقة تعلم وتلقٍ خاصة ما يتعلق منه بالغيبيات، ومن المعلوم أن العقـل دلـنا عـلى صـدق الرسول في كل ما أخبر به، واصبحت طاعة الرسول واجبة في ذلك.

وكـثيرا مـا نجـد في كـتابات السـلف ضرب الأمثلة التي يوضحون بها نوع العلاقة بين العقل والوحي ليقربوا بها المسألة إلى الأفهـام؛ فهي تشبه إلى حد كبير موقف الرجل العامي الذي يعلم أن فلانـاً من الناس هو المفتي وجاء إليه من يسأله عن هذا المفتي فدله عـليه، وبين له أنه العالم المفتي الذي يستفتيه الناس عند الحاجة؛ ثم اختـلف هـذا الـرجل العامي مع العالم المفتي وقال لسائله يجب أن تسـمع قـولي ولا تسـمع قـول المفتي، وحينئذ يجب على السائل المستفتي أن يقدم قول المفتي لا قول الرجل العامي.

فـإذا قال له الرجل العامي أنا الأصل في علمك بأنه مفت فإذا قدمت قوله على قولي عند الاختلاف كان ذلك قدحاً في الأصل الذي علمت به أنه مفت.

قـال لـه السائل : أنت شهدت بأنه عالم مفت. وزكيته ودللت عـليه فشهدت بوجوب إتيانه والأخذ عنه دون تقليدك؛ وموافقتي لك في العلم بأنه مفت لا يستلزم بالضرورة أنني أوافقك في العلم بأعيان

المســـائل التى هى محل الخلاف بينكما، وخطؤك فى أعيان المسائل الــتى خـــالفت فيها المفتى ، لا يلزم عنه خطؤك فى أنك دللت عليه وشهدت له وزكيته وفى علمك بأنه مفت، هذا مع الفارق الكبير، فإن المفتى قد يجوز عليه الخطأ أما الرسول فإنه معصوم ، ولذلك وجب تقليده على كل من آمن به سواء وافقه عقله أو خالفه.

وكذلـــك الأمر بالنسبة لمن شهد له الناس بالطب ومهارته فيه، ثــم جـــاء المــريض وسأل العامى عن عنوان الطبيب الماهر فدل المــريض على عنوان الطبيب الحاذق فذهب إليه المريض، ووصف له الطبيب العلاج المناسب لعلاج ما يشكو منه، ولما خرج المريض ســألـه الرجل العامى قائلاً، ماذا وصف لك الطبيب، فأخبره المريض بنوع العلاج.

فقال له العامى: إن هذا العلاج غير صحيح، وينبغى أن تتركه ولا تأخذ به.

فقـــال لـــه المـــريض أنت لا تعرف شيئاً فى مهنة الطب. أما الطبيب فهو أهل اختصاص.

فقـــال العامى: لا بل يجب أن تسمع قولى لأنى قد دللتك على الطبيب، وأنا الذى زكيته لك، فيجب أن تأخذ بقولى فى محل الخلاف لأن عدم الأخذ بقولى يقدح فى الأصل الذى عرفت به الطبيب، وهنا يقال للعامى علمك بأنه طبيب ماهر لا يعنى أبداً علمك بمهنة الطب.

وكذلك العقل لما دلنا على أن نبوة محمد (ﷺ) صحيحه وأنه صادق فيما أخبر به عن ربه، كان ذلك صحيحاً منه لوضوح دلائل النبوة لكل ذى عقل، ومعرفة العقل بأن محمداً نبى بدلائله الواضحة لا يعنى أبداً أن العقل متخصص فى علم النبوة، وأنه يعلم ما علمه النبى، لا .. بل هنا يقال للعقل "ليس هذا بعشك فادرجى" فنحن فى حياتنا العادية نعلم أن غيرنا أعلم منا بصناعات كيماوية أو معدنية مختلفة، فإذا سألنا سائل عن صانع حاذق بالمعادن وأنواعها ، فدللناه عليه، فهل يعنى هذا أننا أكثر علماً بهذه الصنعة من الصانع نفسه، وهل إذا اختلف معنا السائل فى سر من أسرار هذه الصناعة نقول له إن قولنا مقدم على قول الصانع الماهر فيها؟

إن فى ذلك من التمويه والمغالطة ما لا يخفى على العقلاء، وهذا هو شأن من يقدم بين يدى الله ورسوله فى مسائل الغيب.

٩- ومن المعلوم أن أفضلية الرسول ومباينته لذوى العقول ليس لها نظير فتقاس به فى باب النبوة، فإن من الناس من يمكنه أن يصير عالماً بالطب والصناعات المختلفة، ولكن لا يمكن لأحد أن يصير نبياً بعقله. ولا يمكن لمن لم يجعله الله نبياً رسولاً أن يصير بمنزلة النبى الرسول. فإن النبوة لا تنال بالاجتهاد ، فإذا علم المؤمن ذلك وعلم بالعقل أن محمداً رسول الله وأنه أخبر بشىء ووجد فى عقله ما ينازعه فى خبره ويعارضه فى قبوله

كان عقله يوجب عليه أن يسلم فى موارد النزاع إلى من هو أعلم بــه مــنه، وإلى مــن هو متخصص فى الأخذ عمن بيده مفاتح الغيــب. وأن لا يقدم رأيه على قول الله ورسوله، إن كان على يقيــن بأن الله ورسوله أعلم بما أنزل منه، وإن كان فى شك من ذلــك، فــليس له معنا حينئذ حديث، لأن كل من تعود معارضة الشـــرع بــرأيه لا يســتقر فى قلبه الإيمان وهو أشبه بمن يعلق إيمانه بالرسول على شرط عدم المعارض العقلى لأقوال الرسول وأخباره، فإيمانه مشروط بعدم المعارضة، ومن المعلوم أن ذلك الموقف هو مدخل الإلحاد، وقد سبق أن بينا أن فى أخبار الأنبياء عن الغيب ما لا ينال بالعقل، ولا يدرك بالحس، ويمتنع أن يصل أحــد إلى هذه الأخبار الإيمانية إلا بواسطة الوحى والأنبياء عنها فقط.

(٤)

الوحي والعلم

تحديد المفهوم

ســبق أن تحدثنا عن علاقة العقل بالوحي وحددنا مفهوم العقل والمراد منه، ويتردد الآن الحديث عن علاقة الوحي بالعلم، وأن العلم يعارض الوحي، فما المراد بالعلم هنا ؟

لقــد عــرف العلماء والمفكرون العلم بتعريفات كثيرة، وكلها تــدور حول انكشاف المعلوم انكشافاً تاماً، واليقين به بحيث لا يرقى إليك شك، أو هو العلم بالموجود على ما هو عليه في الوجود، والعلم علاقــة بين الذات العالمة وموضوع العلم، وهو صفة للذات العالمة، فهل المراد من قولنا علاقة الوحي بالعلم هو هذا المعنى..؟

وقــد يطلق لفظ العلم على ألسنة المعاصرين ويراد به الحقائق العلمية والاكتشافات العلمية الحديثة، فيكون المعنى المراد هو عطاء العــلماء وحقــائق العــلم الــتي توصل إليها العلماء خلال بحوثهم واكتشــافاتهم، مثل اكتشافهم كروية الأرض، وأن الشمس هي مركز الكــون، قانون الجاذبية، قانون الطفو، قانون الطاقة. الخ وغير ذلك

مما يطلق عليه مصطلح "العلم الحديث" الذى توصل إليه العلماء فى مجالات الطب والفلك والكيمياء والفيزياء وغيرها فأى المعنيين هو المقصود حين نقرأ عبارة الدين والعلم، أو الوحى والعلم؟

لعل فى قراءتنا لقصة الصراع بين الكنيسة والعلم فى العصور الوسطى بأوربا ما يوضح لنا أن المقصود بالعلم هنا هو المعنى الثانى، هو حقائق العلم واكتشافاته، أما المعنى الأول لهذه الكلمة "العلم" فليس وارداً هنا سواء أردنا به صفة العالم أو أردنا به انكشاف المعلوم واليقين الجازم به. وسوف يزداد الأمر وضوحاً فيما يلى:

◈ متى نشأت المشكلة تاريخياً :

إن الحديث عن علاقة الدين بالعلم لم يأخذ مكانه فى البحث الفلسفى إلا فى عصر النهضة بأوربا، كما أن العلاقة بينهما لم تكن محل تساؤل أو جدال قبل ذلك، وإنما شغل المفكرون أنفسهم ببحث العلاقة بين الدين والعقل باعتبارهما وسيلتين للمعرفة وأى هاتين الوسيلتين ينبغى أن تكون له الأولوية عند التعارض. وقد سبق الحديث عن هذه القضية، كما درسها القدماء، وأفاض فيها المفكرون أمثال ابن رشد والغزالى وابن تيمية وغيرهم.

ولقد نشأ الصراع بين الكنسية والعلماء فى العصور الوسطى حيث فرضت الكنيسة على أتباعها الإيمان بمعتقدات خرافية ادعوا

أنها وحي ودين، وأن الخروج عليها كفر وإلحاد يكون جزاؤه الطرد مـن رحمـة الكنيسـة والقتل والإحراق والطرد من البلاد، وكانت تسـتعين الكنيسة فى تنفيذ أوامرها بالإمبراطور وسلطانه لأن تعيين الإمبراطور وعزله خاضع لسلطان رجال الكنيسة وأوامرهم.

وكان مما فرضته الكنيسة على أتباعها أن يؤمنوا بأن الأرض ليسـت كـروية وأنها مركز الكون، والغريب أنهم جعلوا هذه الآراء عقيـدة وديـناً لأتباعهم، ولما جرب العلماء هذه الآراء وأخضعوها للـبحث العلمى وجدوها خرافة لا أساس لها من الصحة ، وجهلاً لا حـظ لهـا من العلم. فأعلن العلماء رفضهم لها وللكنيسة معاً، وحين رفضـها العلماء لم يرفضوها على أنها آراء شخصية قال بها رجال الكنيسـة وإنمـا رفضـوها على أنها الدين الذى بشرت به الكنيسة، رفضـوها عـلى أنهـا الوحى الذى ادعت الكنيسة أنه ينزل عليهم، وأعلن العلماء حربهم على الكنيسة وعلى الدين الذى بشرت، فما كان من الكنيسة إلا أن استعانت. بالسلطة وقررت حرمان هؤلاء العلماء من رحمة الكنيسة، وكان جزاء العلماء هو الإحراق أو القتل والطرد مـن الـبلاد باسـم الديـن، ولا يخفى على قارئ التاريخ ما جرى لكوبـرنيق وجاليليو ونيوتن وتلامذتهم من تعذيب واضطهاد على يد الكنيسة.

ورغم ما أصاب العلماء على يد الكنيسة من تعذيب واضطهاد إلا أنهـم استطاعوا أن يثبتوا للأجيال التالية أن ما تدعيه الكنيسة دينا

وعقيـــدة ليس إلا خرافة ومظهرا من مظاهر الجهل، وبدأت من هذا التاريخ قصة الصراع الطويل بين الكنيسة والعلم، وبدأت ثقة العلماء فى الكنيســة ورجالهــا تختفى رويداً رويداً، وأصبح رجل الدين فى نظر العلماء رمزاً للجهل، وأصبحت آراؤه الدينية مظهرا من مظاهر الخــرافة والتخــلف، واخـــتفت من هذه المعركة كلمة الكنيسة ليحل محـــلها لفظ الدين والوحى، كما اختفى لفظ رجل الكنيسة ليحل محله رجل الدين، وأخذت هذه الازدواجية الدين والعلم تأخذ العلاقة بينهما شكل التناقض، فهما لا يلتقيان أبداً. إما العلم وإما الدين، الدين عندهم رمــز التخلف والجهل والخرافة. والعلم رمز التنوير والتقدم وعنوان النهضة المنشودة

وأخـــذت هـــذه العلاقة التناقضية فى الظهور والشيوع إلى أن عمـــت أنحاء أوربا كلها، وترتب على ذلك أن أفرزت هذه المعركة مجموعة من المصطلحات التى حملت فى طياتها معنى الرفض لكل مـــا هـــو دينى، مثل الحداثة، التنوير، العلمانية، وأخذت الفجوة تتسع شـــيئاً فشـــيئا إلى أن ســـيطرت النزعة العلمية على الحياة فى أوربا وبـــدأت الكنيسة يتراجع سلطانها ويتحدد نشاطها داخل جدرانها فقط، وأخـــذت الـــنزعة العلمانية تمد سلطانها لتحل محل الكنيسة فى إدارة شـــئون المجـــتمع ونظـــام الحكم، وتبدلت النظرة إلى الكون وعلاقة الإنســـان به، كما أخذت قضية اللاهوت وما يتبعه من قضايا إيمانية تتلاشى ويتلاشى أثرها من مظاهر الحياة.

وأخذت العلمانية تنشر على المجتمع مبادئها لتحل محل تعاليم الكنيسة، وأخذت مظاهر التقديس التى كانت تحظى بها التعاليم الكنسية تختفى أو تتلاشى من قلوب أتباعها، وأخذ العقل يحتل مكان الوحى، وتحولت نظرة العلماء وتقديسهم للمطلق (الله) إلى الكون والإنسان فكانت الطبيعة هى قبلتهم والإنسان محل تقديسهم، والاهتمام بما هو دنيوى حل محلّ الاهتمام بكل ما هو أخروى، كذلك كانت علاقة الإنسان، بالطبيعة قائمة على أساس قطع الصلة بينها وبين ما هو غيبى (الله) ومصدر قوة الإنسان عندهم ليست مستمدة من قوى غيبية بل من قوة سيطرته على الطبيعة وقامت النزعة العلمانية على هذا الأساس. بتر الصلة بين كل ما هو دنيوى وما هو أخروى، وصار الواقع الفعلى الذى يعيشه المرء أولى بالاهتمام من كل ما هو غائب عن هذا العالم. وخلال هذا التحول الخطر من الإيمان باللاهوت إلى تقديس الطبيعة تبدلت مفاهيم كثيرة وظهرت قيم جديدة، احتلت مكان الصدارة فى حياة الإنسان الأولى.

فتحولت النظرة إلى الكون من النظرة اللاهوتية المطلقة لتجعل الإنسان والكون محور الوجود كله ومركزه، وليست هذه النظرة مستمدة من الوحى وإنما أساسها العقل الرافض لكل ما هو لاهوتى، وليس الكون والإنسان علامات يستدل بها على موجود خالق لها (الله) بل هما مستقلان تماماً فى وجودهما عن أى موجود حقيقى

سـواهما. بل هما الحقيقة الحقة الجديرة بهذا الاسم فى هذا الوجود، لأنهمـا واقـع لا مجـال للشك فيه أما ما يدعيه علماء اللاهوت فى ربطهمـا بوجود غيبى (الله) فإن ذلك أسطورة وخيال زائف لا يمكن الـتحقق مـن وجوده، والحقيقة المطلقة التى يمكن التحقق من ثبوتها ووجودهـا هى هـذا الكـون والإنسان، وما وراءهما فمحض خيال وأسطورة.

وسادت نزعة نقدية لكل ما هو مقدس فى أوربا تبنتها ظاهرة الحداثـة والعـلمانية الـتى تنفى كل ما هو دينى ليحل مكانه الواقع، وحـاول الـنقد العـلمانى للدين أن يجهز على تعاليم الكنيسة لتفسح مكانهـا للعقل والعلم، وليحل النور العلمى والتنوير العقلى محل هذا الكلام الذى سيطر على عقول أوربا فى العصور الوسطى.

وعـلى سـبيل الإجمال تولدت نزعة نقدية ذات طابع علمى قوامهـا تحويل اهتمام الإنسان من اللاهوت إلى الواقع، وبدلاً من أن يكون اللاهوت منظماً لحركة المجتمع تحت سطوة الكنيسة ينبغى أن يحـتل مكانه التنظيم العقلانى الذى يتم فى ضوئه فصل "حسم عن الديـن سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأن تتخلى الكنيسه ورجالها عن دورهم ليحتل مكانهم العلماء ويحتل العلم مكانة الدين.

ولقـد تم ذلك فعلاً وتحول رجال الكنيسة إلى مجرد موظفين يتقاضون رواتبهم من الدولة، ويتم تعيينهم فى الوظائف وعزلهم منها بأمر الإمبراطور شأنهم فى ذلك شأن أى موظف فى الدولة.

ولم تنته هذه المعركة بين العلماء والكنيسة إلا بعد أن سيطرت ظاهرة الحداثة والعلمانية وتبلورت معالمها فى أمور محددة أصبحت شعاراً لعصر النهضة فى أوربا ومن أهم هذه المعالم :

١- العلمية ، ويقصدون بذلك أن يكون الواقع موضوعاً للعلم والعقل مقياســاً لــلحقيقة، والواقع هنا هو الكون. هو الطبيعة فقط وكل أمــور ليــس لهــا رصيد فى الطبيعة ولا يعبر عنها فى الواقع الحسى بألفاظها مقابل موضوعى فهى خرافة وأسطورة، وبالتالى فإن أى حديث عن أمر غيبى ليس مقبولاً.

٢- قــانون العــلية، أن تقوم هذه النزعة العلمية على مبدأ العلية أو قــانون الســببية، وأن ارتباط كل ظاهرة بعلتها وسببها يكفى فى الإجابــة عــن السؤال كيف حدثت الظاهرة وهذا هو هدف العلم وغايــته أمــا الإجابة عن السؤال لماذا حدثت الظاهرة فإن ذلك ليس داخلاً فى مهمة العلم ولا يعنينا البحث عنه أو الانشغال به.

٣- أن يــتم ذلــك كله خلال التجربة. والمنهج التجريبى، وكل ما لم يخضع للتجربة يكون الحديث عنه خرافة وأسطورة.

٤- أن تؤســس المعــرفة العقــلية عــلى النقد. واستبعاد كل ما هو أســطورى (دينى) لا تسنده التجربة ولا يستمد صدقه من الواقع الموضوعى ، ويكون الموقف النقدى هو جوهر العقلانية الحديثة كما يكون جوهر العلمانية والحداثة هو رفض الدين واللاهوت.

ولقـد حـرص أصـحاب هذا الاتجاه أن يبرزوا ما تتميز به نظرتهم العملية فى مواجهة الكنيسة والنظرة اللاهوتية ليجعلوا رجل الدين رمزاً للجهل والخرافة فقالوا :

١- إن التفسيرات اللاهوتية التى يدعونا إليها رجل الدين ليست بذى موضوع. لا سند لها من الواقع، لا تخضع للتجربة، مستمدة من الـنظرة الغيـبية أمـا الموقـف العـلمى فإنه يكشف زيف هذه التفسـيرات، يوضـح ما وراءها من جهل واسطورة، إنه موقف يعمـل على إزالة الأسطورة لتحل محلها الحقائق العلمية، يعمل عـلى إزالة الظلام ليحل محله التنوير، إنه موقف يبدأ من الواقع ويعيد كل شىء إلى الواقع ولا علاقة له بما وراء الواقع المادى.

٢- إن التفسـيرات اللاهوتية تستمد قداستها من المطلق "الله" ليتحكم به فى الواقع عن طريق العلاقة الأسطورية بين الواقع والمطلق، أما النزعة النقدية فإنها تستمد قداستها من الواقع الذى هو مستقل فى وجوده عن المطلق ولا علاقة بينهما، فالكون هو الحقيقة فقط ولا شـىء وراءه يستحق أن يسمى بالحقيقة المطلقة، أما السلوك الإنسـانى والظواهـر الاجتماعية. فهى ترجع فى تفسيرها إلى عوامـل نفسية ومؤثرات اجتماعية وبيولوجية وكل شىء يخضع فى تفسـيره لـلمادة والعلاقـات المتبادلة بين ظواهرها، فالدين والأخـلاق ليسـا إلا إفـرازاً لحـالات نفسية وبيولوجية وآثاراً لظروف اجتماعية وثقافية يعيشها الأفراد فى مجتمعاتهم.

٣- فى هذه النزعة العلمية ينبغى أن تتحول القداسة من المطلق "الله" إلى الطبيعة وإلى الإنسان، فيحتل الإنسان مكانة المطلق "الله" وهو فى علاقة تلازمية مع الطبيعة ليجعل منها موضوعاً للمعرفة، فالطبيعة وحدها هى موضوع المعرفة ولا شيء وراءها قابل لأن يعرف أو يكون موضوعاً للمعرفة التجريبية، وبالتالى فإن أى حديث عما وراء الطبيعة فهو حديث خرافة.

٤- يترتب على ما سبق أن تكون "العقلانية النقدية" قائمة على نفى الدين والارتباط بالواقع، فالشعائر والطقوس الدينية عندهم خداع، والأخلاق والقيم أوهام اجتماعية، وينبغى أن يحتل العمل مكانة الشعائر والطقوس الدينية، وأن يتم تغيير الواقع من خلال الثورة على العقائد اللاهوتية ليحتل الواقع مكانة اللاهوت حتى يتخلص المجتمع من زيف الأساطير.

هذا كله قد حدث فى الغرب خلال القرون الثلاثة الأخيرة، ولا شك أن ما حدث هناك كانت له مبرراته وأسبابه.

فالعلم ينبغى أن يحتل مكانة الجهل.

والنور يحتل مكانة الظلام.

والحقائق تحتل مكانة الأساطير والخرافات. فهذا أمر ضرورى لنهضة الأمم وتقدم الشعوب.

لكــن الســؤال الذى يطرح نفسه الآن. إذا كانت هذه المعركة قــامت فى الغرب لتقضى على خرافات الكنيسة وجهلها وليحل فيها العلم والنور محل الجهل والظلام. فما علاقة هذه المعركة بالإسلام؟ ومــا شــأن الإســلام بقصة الصراع التى نشأت فى بلاد غير بلاد المســلمين، وفى ظل ثقافة الجهل والخرافة التى جاء الإسلام ليقضى عــليها ويحاربهــا؟ إن الإســلام يبارك الثورة على الجهل والخرافة والأسطورة ليفسح المجال للعلم والنور والحقائق العلمية.

فمــا هو السبب فى نقل هذه المعركة إلى أرضنا وبلادنا، لقد أفــرزت قصــة الصراع بين الكنيسة والعلماء ثلاثة مواقف متباينة تختــلف فيما بينها فى تفسيرها للدين الكنسى حسب الحقول الدراسية الــتى تنتمى إليها هذه المواقف، لكنها كلها رافضة للوحى معارضة له.

* **الموقــف الأول** : ويمثله علماء الطبيعة ابتداء من نيوتن، ويذهب أصــحاب هذا الموقف إلى القول بأن الكون الذى نعيشه ليس فى حاجــة إلى قوى غيبية يستمد منها حركته، إنه مكتف بنفسه عن غيــره، إن قوانيــنه كامنة فيه، وهى التى تتولى حركته وتنظيم مسيرته، وكل فرد من أفراده، إنساناً كان أو حيواناً، نباتاً كان أو جمــادا، يشــتمل على قانونه الطبيعى الذى ينظم حركة وجوده ويســوقه ســوقاً إلى أداء مهمته، ولا حاجة به إلى التعلق بقوى

أخرى وراءه يستمد منها نظامه أو حركته، فطبيعة كل كائن هى نظامـــه. هى قوامــه وحياته والعلم قد كشف لنا عن قوانين هذه الكائنات ووضعنا أيدينا عليها وجربناها وعرفنا حقيقتها، فأصبح الكــون عندنا هو الحقيقة. بل هو حقيقة الحقائق. وكل من وراء هــذا الكون هو محض خيال وهم تتشبث به الكنيسة لتستمد منه سلطانها وتفرض به جبروتها على الناس.

إن التفسير اللاهوتى للظواهر الكونية كان يمثل مرحلة متقدمة من عمر البشرية اضطر الإنسان خلال هذه الفترة أن يفسر كل شيء يراه باسم الإله لعجزه عن مواجهة الطبيعة الخارجية وجهله بقوانينها أما بعد اكتشاف قوانين الطبيعة والتثبت من صدقها بالتجربة المباشرة فــلم يعــد هناك مجال للقول بالقوى الغيبية التى لا يمكن إخضاعها للتجربة أو التأكد من صدقها بالمشاهدة الحسية، والحقيقة التى ينبغى الاعــتراف بهـــا عقلياً ليست إلا ما يخضع للتجارب ويمكن فحصه علمياً، والوحى والدين قائم على مسلمات لا يمكن التحقق من صدقها بالـــتجربة ولا سبيل إلى مشاهدتها وفحصها علمياً، وكل ما لا يمكن إثـــباته بالتجربة فهو وهم باطل لا حقيقة له، ومن هنا قالوا إن الدين تفســير زائف للظواهر الكونية، ولابد من إزاحته ليحل العقل والعلم مكانه.

* **الموقــف الـــثانى** : ويمثله تفسير علماء النفس للدين، لقد رأوا أن الدين ظاهرة تنعكس خلالها كوامن اللاشعور المخزون فى النفس

الإنسانية من عمر الطفولة، فالجنة والنار وما يحيط بهما من ترغيب وترهيب صورة مثالية لآمال الإنسان، والوحي والإلهام صور لأساطير عاشها الإنسان فى سن طفولته، والإله صورة مثالية لإنسان الأرض تتجسد فيه صفات العدل والحق وقيم الخير المفقودة فى عالم الواقع، وما الدار الآخرة إلا صورة يتحقق فيها للإنسان ما كان يحلم به فى حياته الدنيا ولكنه فشل فى تحقيقها فخلق لنفسه عالماً آخر تتحقق فيه أحلامه وآماله. وصار الإنسان عندهم هو الذى يخلق آلهه ويصنعه لنفسه من واقع تاريخه النفسى ومخزونه اللاشعورى.

* **أما الموقف الثالث** : ويرجع إلى علماء الاجتماع الذين فسروا الدين على أنه ظاهرة تاريخية أحسن اختراعها الإنسان ليلوذ إليها ويحتمى بها من نوازل التاريخ سواء كانت هذه النوازل كوارث طبيعية كالزلازل والبراكين والأمراض، أم كانت نوازل إنسانية كظلم الحكام وطغيان الملوك. لقد أحس الفقراء والضعفاء بحاجتهم إلى قوى عظمى يلتفون حولها ويهرعون إليها عند النوازل واخترعوا اسم الإله، واشتقوا له مجموعة من الصفات التى وصفوا بها الإنسان، فإذا كان فى بنى البشر ملك يظلم فهناك ملك أكبر منه يقتص منه للمظلوم، وإذا كان هنا قاض غير عادل فهناك قاض أكبر منه عادل يجازى على الخير

والشر، وعلى ذلك يقولون إن الدين ظاهرة اجتماعية خلقها العقل الإنسانى وأتم خلقها فى حالة عجز الإنسان عن مواجهة القوى الخارجية، لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة طلباً لحمايتها. وجاء بالسحر ثم بالعمليات الروحية، ثم بالعقيدة الإلهية حتى اخترع فكرة الإله الواحد... وهذه العقائد قد فات أوانها وفقدت ضرورتها لأنها ظهرت فى فترة تاريخية معينة استجابة لعجز الإنسان وعنواناً لجهله. أما بعد سيادة العلم والعقلانية فلم يعد الإنسان بحاجة إلى هذا الاعتقاد.

إن هذه المواقف الثلاثة قد نشأت كنتيجة طبيعية لرفض العلماء للكنيسة واللاهوت المسيحى إبان المعركة التى نشبت بين الكنيسة والعلماء. ولم يشهد تاريخ الفكر الدينى ثورة أشد ولا أقسى من ثورة العلماء على الدين خلال هذه المعركة ، لقد كان موقف الرافضين للوحى قبل هذه المعركة قاصرا على الدهريين والطبيعيين، فالدهريون أسندوا الفعل إلى الدهر قالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وكان رد القرآن عليهم مكتفياً بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية : ٢٤].

وكان الموقف الطبيعى يشبه إلى حد كبير الموقف الدهرى، لكن لم نقرأ فى تاريخ الفكر الدينى هذا الهجوم الشرس على الوحى إلا بعد هذا الصراع الذى شهدته أوربا بين الكنيسة والعلم.

فالفلسفة اليونانية وهى الأم الشرعية للفلسفة الأوربية فى العصور الوسطى والحديثة لم ترفض فكرة الإله، ولم تنف وجوده، وكلام أرسطو عن المحرك الأول وكلام أفلاطون عن الأول والعلة الأولى قد أشبع نهمهم العقلى بالبحث فى هذه القضية، فهم لم ينكروا وجود الإله. وإن كان تصويرهم له يختلف عما أتى به الوحى لكنهم لم يقولوا باكتفاء الكون بذاته واستغنائه عنه لأنه عندهم المحرك الأول لهذا الكون، وأن هذا الكون بما فيه يتحرك حسب قوانينه شوقاً وتشبها بالإله.

كما لم نقرأ فىتاريخ الفكر الدينى أن الدين ظاهرة تاريخية مضى وقتها وفات أوانها ولم يعد لنا حاجة إليها إلا على يد أوجست كونت ومدارس علم الاجتماع التى سارت على منهجه.

كما لم نقرأ أن التدين حالة نفسية يخلقها الإنسان لنفسه يحقق فيها آماله وطموحاته ويهرب إليها من واقعه المؤلم. إن هذه التفسيرات كلها نشأت فى ظل النهضة الأوربية المعاصرة التى ثبتت أركانها على أنقاض الكنيسة وتراثها.

وظهر الدين بمعناه العام فى هذه المعركة معارضاً للعلم، رافضاً له، رمزاً للجهل والتخلف، ورجال الدين دعاة إلى الخرافة محاربين للعلم ومعاندين للعقل، وظهرت العلمنة عنواناً لرفض الدين

وإقصـــائه عـــن شـــئون الحيـــاة تربوياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياســـياً، وظهرت الحداثة عنواناً لرفض القداسة ومحاربتها، فليس هـــناك ما يستحق القداسة إلا الإنسان والطبيعة، وفكرة الإله والتراث والقداســـة كـــلها أفكـــار بالية خدعتنا بها الكنيسة لتستذل بها عقولنا وتمـــلك بها رقابنا، والعقل وحده هو الذى ينبغى أن يحتل مكانة الإله والعمـــل والإنتاج يأخذ مكانة الشعائر الدينية وقداستها، وبذلك قضت هـــذه الـــنزعة الإلحاديـــة على كل ما هو دينى. وعكفت على الكون تســـتنطقه أســـراره، وتقف على قوانينه، وتكشف عن نظامه، وكان العلم والعقل هما سلاح هذه المعركة.

◈ فى العالم الإسلامى :

لقد انتقلت هذه المعركة بكامل حيثياتها وملابساتها إلى العالم الإسلامى واختفت منها كلمة الكنيسة وحل مكانها لفظ الدين. الدين بالمعنى العام. وبدلاً من أن يصوروا قصة هذا الصراع على أنه صراع بين آراء رجال الكنيسة والعلماء صوروها على أنه صراع بين الدين بمعناه العام والعلم. وصار الدين نقيضاً للعلم وأصبح الإيمان بأحدهما يعنى نفى الآخر ورفضه، وارتبط لفظ الدين بالتخلف والرجعية والخرافة والأسطورة كما صار رجاله رموزاً لهذه المعانى السيئة.

لقد صدَّر الغرب هذه المعركة إلى بلاد المسلمين ضمن الصادرات الثقافية خلال القرنين الأخيرين وحمل لواءها نيابة عن الغرب مجموعة من تلاميذ المستشرقين في العالم الإسلامي ومن أبناء العربية ممن يرفعون شعار العلمانية والتنوير والحداثة.

ومن الإنصاف أن نقرر هنا أن المسيحية الصحيحة التي بشر بها نبي الله عيسى عليه السلام بريئة تماماً من كل الخرافات والأساطير التي فرضتها الكنيسة على أتباعها في العصور الوسطى، فليست المسيحية طرفاً في هذه المعركة، لأن نصوصها لم تتعرض لتفسير الظواهر الكونية لا من قريب ولا من بعيد، وهذه التفسيرات الخرافية التي قال بها رجال الكنيسة لا علاقة لها بالوحي الذي نزل على نبي الله عيسى، ولكنها كانت إحدى الأساليب التي استذل بها رجال الكنيسة عقول السذج من الناس بدعوى أن الوحي نزل بها وأنها دين وعقيدة.

لقد تبنى رواد العلمانية والتنوير الدعوة إلى رفض الدين وإقصائه عن حركة المجتمع كما فعلت أوربا، دون أن يفرقوا بين الإسلام والكنيسة ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن علاقة الإسلام بالعلم وموقفه من الخرافة والأسطورة ومحاربته للجهل.

وكما صورت أوربا الكنيسة على أنها سبب تخلف أوربا وانحطاطها قال بذلك رواد التنوير والعلمانية في بلاد المسلمين، فجعلوا الإسلام سبباً لتخلف المسلمين وانحطاطهم.

وكمـــا جعـــلت أوربـــا رجال الكنيسة رموزاً للتخلف والجهل نـــادى التـــنويريون والعلمانيون فى بلادنا بأن رجال الدين هم رموز التخلف والجهل.

وكما أن أوربا لم تتقدم ولم تنهض إلا بعد أن نفضت يدها من سلطان الكنيسة وأبعدتها عن شئون الحياة.

نـــادى رواد التنوير بأن المسلمين لن يتقدموا وينهضوا إلا إذا تخـــلوا عـــن الإســـلام ونفضوا أيديهم منه وأبعدوه تماماً عن حركة الحياة.

وكمـــا نادى علماء الغرب بأنه ليس هناك شيء "مقدس" يعلو عـــلى نقـــد العقل، كذلك نادى رواد التنوير فى بلادنا بأنه ليس هناك شـــيء "مقدس" يعلو على النقد، وأخضعوا القرآن الكريم لمنطق النقد العقـــلى وحـــاولوا أن يجعـــلوه محلا للشك وموضعاً للتشكيك بل إن بعضـــهم حـــاول أن يطـــبق على القرآن الكريم بعض نظريات النقد الحديـــثة ليقول إن القرآن قد اشتمل على بعض الأساطير التى عرفها العرب قبل الإسلام.

هـــذا هـــو جوهر حركة التنوير التى يروج لها العلمانيون فى العـــالم العـــربى، ولقد شجعهم على ذلك بعض المؤسسات التبشيرية الـــتى انتشـــرت فى أنحـــاء شـــتى من بلاد المسلمين، كما أسهم فى الـــترويج لهـــا كـــثير من النصارى أمثال فرح أنطون وشبل شميل

وسلامة موسى وغيرهم من الذين يسبح الإعلام بأسمائهم باسم التنوير وأعلامه.

وفى الحقيقة لقد ظلم هؤلاء وأولئك العلم والدين معاً.

لقد ظلموا الدين حين نقلوا إلينا صراع الكنيسة والعلم على أنه صراع بين الدين والعلم. ذلك أن الدين الذى بشر به عيسى عليه السلام برىء مما فرضته الكنيسة على أتباعها وجعلته دينا لها.

ولو كان عيسى ابن مريم بينهم لأعلن براءته منهم ومن دينهم الذى نسبوه إليه ولقد توعد القرآن الكريم أمثال هؤلاء فى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة : ٧٩].

وظلموا العلم ثانياً حين قالوا إن العلم ينفى الدين ويناقضه ذلك أن الأديان السماوية الصحيحة كلها حق. والعلم الصحيح فى ذاته حق. ومحال أن ينفى حق حقاً آخر أو يعارضه.

كما ظلموا الإسلام ثالثاً حين أقحموه فى هذه المعركة وجعلوه مثل الكنيسة دون أن يفرقوا بين الإسلام واحتضانه للعلماء ودعوته للعلم والكنيسة وموقفها الرافض للعلم المحارب للعلماء.

◈ وهنا أمران ينبغى أن ننبه إليهما :

الأمر الأول : لا ينبغى أن نجعل واقع المسلمين المعاصرين مقياسا نحكم به على الإسلام، لأن واقع المسلمين لا شك أنه واقع متخلف علمياً فلا ينبغى أن نجعل تخلف المسلمين دليلاً على تخلف الإسلام.

كما أن واقع المسلمين متردٍ اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً فليس مـــن الحكمة أن نجعل هذا الواقع المؤلم مقياساً نحكم به على سلامة المـــبدأ وصـــحته الذاتيـــة فكم من المبادئ الصحيحة تحولت على يد أبنائها إلى فساد وانحلال عند التطبيق، وهذا أمر لم يخل منه مجتمع ولا خلت منه حضارة.

فعلى سبيل المثال نجد الإسلام فى نصوصه من الكتاب والسنة يجعل العدل أساساً لاستقرار الحكم ودوام الملك، وقديماً كنا نحفظ فى مقـــررات الدراسة أن العدل أساس الملك، وأن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة، وكم من النصوص النبوية والآيات القرآنية تؤكد على هذا المبدأ. ولكن الواقع الـــذى يعيشـــه العالم الإسلام تلاشى من قاموسه مبدأ العدل وأصبح الظـــلم عنواناً لقوة الحكم وشعاراً لهيبة الدولة، ورمزاً لاستتباب الأمن فى الـــبلاد. وكـــم من ألفاظ اخترعوها ليلبسوها ثوبا اجتماعياً مقبولاً عـــند الناس ليمارسوا تحتها ألواناً من الظلم لم يعرفه التاريخ. فهل

نجعل واقع الحكم فى العالم الإسلامى وهو بهذه الصورة المزرية دليلاً على أن الإسلام لا يجعل العدل أساساً للحكم فيه.

والإسلام يجعل الشورى مبدأ الحكم فى الإسلام، نزل به الوحى الإلهى آمراً الرسول وهو مصدر التشريع أن يجعل الشورى أصلاً من أصول العلاقة بينه وبين أصحابه مع أنه المعصوم والمؤيد بالوحي المعصوم؛ لكن لكى يستقر هذا المبدأ على يديه وهو بين أصحابه نزل به، قوله تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٥٩]. كما جعل مبدأ الشورى عنوانا لجماعة المؤمنين وصفة لازمة لهم لأنها من لوازم الإيمان. فقال تعالى عن جماعة المؤمنين : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

فإذا تحولت الشورى على يد حكام المسلمين إلى استبداد سياسى لا يعرفه تاريخ البشرية، وأصبح مصير بعض شعوبه مرهوناً بأسر وعائلات يتوارثون حكم الشعوب وكأن الحكم تركة عقارية تنتقل تلقائياً من جيل الآباء إلى الأبناء ثم الأحفاد. فما دخل الإسلام فى ذلك؟ وما علاقة هذه الأنظمة الاستبدادية بالإسلام ونظامه السياسى القائم على مبدأ الشورى؟ وهل من الإنصاف أن نجعل استبداد الحكام فى بلادهم دليلاً على أن الإسلام لم يجعل الشورى أصلاً من أصول الحكم.

نعـــم. لقـــد أصـــبح معـــروفاً بل من المقرر فى تاريخ الحكم ونظامـــه العالمى، أن سياسة الاستبداد والطغيان صناعة شرقية، وأن شـــعوب الشـــرق هى الـــتى تعرف تماماً كيف تصنع الحاكم الظالم المســـتبد الطاغيـــة. بـــل تـــرعاه وتعبده أحياناً. لكن ما علاقة ذلك بالإسلام.

وإذا كـــان الإســـلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومســـلمة، ويجعـــل مداد العلماء عند الله كدم الشهداء، ويجعل العلوم الكونيـــة (الفيـــزياء – الكيميـــاء – الرياضيات – الهندسة – الفلك – الطـــب... الـــخ) هى المدخل الطبيعى للعلم بالله ومرآة لتجلى صفاته مـــن الحكمة والعلم والقدرة، وربط خشية الله بهذا العلم الكونى، قال تعـــالى: ﴿وَمِـــنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٧، ٢٨]. فليس المقصود بالعلم هنا ولا بالعـــالم : عالم التفسير أو الحديث أو الفقه، إنما هو العالم بالكون ودقائقه. هذا هو العلم الكونى فى التصور القرآنى.

فـــإذا انصـــرف المسلمون عن هذا العلم وأداروا له ظهورهم وفضـــلوا الجهل بالكون على العلم به وبدقائقه وآثروا الكسل والدعة عـــلى التعـــلم والـــبحث حتى صاروا أضحوكة العصر وذيل الركب والقافلة، فما دخل الإسلام فى هذا التخلف الذى يعيشه المسلمون.

وإذا كـــان هـــذا هو واقع المسلمين؛ التخلف. الجهل، الأمية. الفقر، فهل من الإنصاف أن نجعل هذا الواقع المتردى دليلاً نحكم به على الإسلام بأنه سبب تخلف المسلمين.

أليـــس من الأجدى والأقرب إلى روح المنهج العلمى أن يقرأ هـــؤلاء الإسلام فى نصوصه من الكتاب والسنة ليتعرفوا على موقفه مـــن العـــلم كمفتاح للنهضة، وعلى العدل والشورى كأساس للحكم، ويعـــرفوا أن الإســـلام يجعـــل هـــذه الأســـس أصولاً لقيام الممالك واستقرارها وازدهار الحضارات ونهضتها؟

إن الحكم على الإسلام من واقع المسلمين أمر مقصود فى ذاته يـــلجأ إليه البعض ويروجون له، لأنهم لم يجدوا فى نصوص الإسلام دليـــلاً عـــلى موقفهـــم المعادى للإسلام إلا واقع المسلمين المتخلف فجعـــلوه ســـندا لهم ودليلاً على ترويج أفكارهم ضد الإسلام، فخلعوا عـــلى الإســـلام أوصـــاف الكنيســـة، كما خلعوا على علماء الإسلام أوصاف رجال الكنيسة. فصاروا رموزا للتخلف والجهل والخرافات. وسار فى نفس الطريق جمهور كبير من العلمانيين ودعاة التنوير فى بلادنا ممن لا تربطهم بالإسلام إلا صلة الاسم وشهادة الميلاد فقرأوا الإســـلام فى كـــتابات المستشرقين بدلاً من أن يقرأوه فى نصوصه الأصـــلية وصـــادف رأى المستشـــرقين عـــندهم قلباً خالياً فتمكنا. فأصـــبحوا دعـــاة لهـــذه الافتراءات مدافعين عنها، وتولوا نيابة عن

المستشرقين الدفاع عن موقفهم من الإسلام. ولعل الذى يتابع الحركة الثقافية المعاصرة فى عالمنا العربى بالذات يجد آراء المستشرقين فى الإسـلام وفى القرآن والسنة جعلها البعض عناوين لبعض المؤلفات العربية، ولا شك أن خطر هؤلاء على الإسلام أشد وأقسى من خطر المستشـرقين أنفسهم لأنهم من أبناء جلدتنا، يعيشون بين ظهورنا بل قـد تسنم معظمهم ذرى المؤسسات الثقافية والإعلامية، ليجعل منها منـبراً لـبث أفكـاره بين الجمهور، ويجعلها منطلقاً للتأثير فى سير الحـركة الثقافية فى البلاد ، ويرصد الجوائز المالية لتكريم من يسير فى ركـبه ويـنهج نهجـه ويجعل فكره ورأيه مبدءاً ومقياساً للولاء والبراء بين المثقفين.

وهكـذا أصـبح الإسلام مظلوماً بين أهله كما هو مظلوم من أعدائه وخصومه، فلا العلماء به قد مكن لهم الدفاع عنه، ولا أنظمة الحكم فى العالم الإسلامى منعوا – بحكم موقعهم – الأقلام المتربصة من النيل منه.

وقد يحتج هؤلاء على ما يذهبون إليه بأقوال بعض المشتغلين بالعـلم ممن يملكون عاطفة التدين وحماسة المتدينين، ولكن ينقصهم الـزاد الـنافع مـن العلم بمقاصد الشريعة الكلية فيقعون فى أخطاء ويفتون بأقوال قد لا تتفق مع روح الشرع، ولكنها من وجهة نظرهم تسـد الذرائع وتمنع الفتن من باب أن الوقاية خير من العلاج، فيجد

فيهــا هــؤلاء المتربصون فرصة للتشنيع على الإسلام بأنه يعارض التقدم ويحارب التطور، مع أن هذه آراء واجتهادات لا تمثل إلا رأى أصحابها وربما لو تأملها هؤلاء المتربصون بعين الإنصاف لوجدوها صــواباً من حيث عللها الغائية ومقاصدها العامة، ولكن أنَّى لهم ذلك وهم لا يفرقون بين آراء الرجال والنصوص الأصلية للإسلام.

أما الأمر الثانى الذى أود أن أنبه إليه هنا؛ فهو موقف الإسلام مــن توظيــف العلم وتسخيره، فإن نتائج العلم والمعرفة أمر محايد صالح لأن يستعمله الإنسان فى الخير الذى يسعد البشرية ويحقق لها الــرفاهية وطيب العيش، كما أنه صالح فى الوقت نفسه لأن يستعمله الإنسان فى دمار البشرية وخراب العالم، فهو صالح لأن يستعمل فى الخيــر أو الشر على سواء، صالح لفعل الضدين، وتوجيهه إلى فعل الخير أو الشر خاضع لإرادة الإنسان ومقاصده منه وغايته فيه. وهنا لابــد أن تختــلف الغايــات وتــتعارض المقاصد حسب ثقافة العالم وحضــارته، والقيــم التى يدين بها، والمجتمع الذى يستظل بسياسته، وحســب الدين الذى يؤمن به. والإسلام يؤكد هنا على أمر مهم جداً وهــو أن العلم نعمة كبرى من الله وهبه للإنسان وأن موضوع العلم هــو هذا الكون وما فيه من آيات كبرى وظواهر طبيعية فهو أيضاً مخــلوق لله، لــتحقيق مصـــالح الإنسان ودفع الضار عنه، ووسائل المعرفة التى يتعامل بها الإنسان مع الكون فى الموقف المعرفى هى أيضاً مخلوقه لله وخلقت على هيئة مخصوصة لتحصيل هذه المعرفة

والإفادة منها، ثم أن القوانين التى يكتشفها الإنسان فى هذا الكون هى أيضـــاً من صنع الخالق سبحانه فهو الذى خلق السبب وجعله مؤثراً، وخلق المسبب وجعله قابلاً للأثر.

وإذا كانت هذه الأمور التى يتشكل منها الموقف المعرفى كله مخلوقة لله بما فيها الإنسان نفسه، فإن فلسفة الإسلام فى هذا الموقف تفــرض على الإنسان أن يحسن توظيف العلم لصالح الإنسان ودفع الضار عنه وليعمر به الكون، لأن العناصر المكونة للموقف المعرفى كلـــه مخـــلوقة لله كما سبق، وينبغى أن يوظف العلم الناتج عن هذا الموقف المعرفى لتحقيق إرادة الله فى كونه.

ونتنــبه هنا إلى أمور قصدها الشارع من توظيف العلم وعلاقة العلم بالوحى.

* **الأمــر الأول** : تحقيق الوظيفة الكونية وهى أن نجعل هذا الكون آية دالة على خالقه كما أشار القرآن فى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]. وأن نجعله مفــتاحاً يلج منه الإنسان إلى الإيمان بعالم الغيب، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِــنُونَ﴾ ومـــا لم يجعل الإنسان هذا الكون آية دالة على خالقه فإنـــه بذلك يكون قد فاته المعنى الإلهى من معرفته بالكون. لأن الخلق فى ذاته آية دالة على وجود الخالق.

ويتعلق بهذه الوظيفة الكونية معنى آخر حرص الشرع على تحقيقه وتحصيله واستحضاره في عقل الإنسان، وهو أن هذا الكون بما فيه من دقائق الصنعة وما يشتمل عليه من حكمة الصانع يعتبر مراة تتجلى فيها الصفات الإلهية ويقرأ العقل فيها حكمة الصانع وحسن تدبيره، ومطلق قدرته وعموم إرادته، وكلما ازداد العقل البشري علماً بدقائق الصنعة ازداد قلب العالم إيماناً ويقيناً بصفات الصانع وما يجب له من صفات الجلال والجمال والكمال ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ هذه المعاني الكونية حرص الشرع على تحقيقها وتحصيلها من معرفة الإنسان بالكون وما فيه.

* **أما الأمر الثاني** : وهي تحقيق الوظيفة الاجتماعية للكون : بمعنى أن يحسن المرء تسخير هذا الكون وتوظيفه لتحقيق منافع الإنسان ودفع الضار عنه، والكون هنا كلمة جامعة، تطلق على ما سوى الله تعالى، فالعالم من سمائه إلى أرضه سخر لخدمة الإنسان وتحقيق منافعه كما سبق، فكل ما يمكن أن يوظفه العلم لتحقيق خير الإنسانية من هذا الكون يصير مطلباً شرعياً، فاستخراج المعادن من باطن الأرض وتسخير الأفلاك والإفادة من السببية الكامنة فيها، وما في البحر من عوالم وتسخير الرياح.. كل هذا مطلب شرعي ووظيفة إنسانية في الكون، فإذا ما قصر المسلمون في تحصيل هذه الوظائف لابد أن يجنوا الثمرة المرة القاسية تخلفاً وتأخراً عن ركب التاريخ الذي لا

مكـــان فيـــه إلا لمـــن ملك مفاتيح العلم بأسرار هذا الكون، ولا يحســـب هذا الموقف على الإسلام فى مصادره بل يحسب على المسلمين الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم، كما تحسب عـــلى ولاة أمور المسلمين الذين آثروا أن يكونوا قادة لقطيع من الجهلاء بدلاً من أن يحملوا راية العلم أمام موكب العلماء.

إن القضـــية هنا ليست علاقة بين الوحى والعلم وإنما هى علاقة أصـــحاب الـــوحى وأتـــباعه بالعلم ومعرفة قوانينه، سواء على مستوى العلم الكونى أم على مستوى العلم الاجتماعى، وكما سبق أن قلـــنا إن هـــذه سنة الله فى كونه من أخذ بها وأحسن توظيفها لابد أن يجنى ثمرتها ولو كان من الكافرين، ومن أدار لها ظهره وأعرض عنها جنى ثمرتها مرارة وتخلفاً، ولو كان من المؤمنين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

* **الأمـــر الثالث** : إن الدين والعلم يكملان منظومة الموقف المعرفى للإنســـان ومعرفته بالوجود وغايته، بدءًا ونهاية، بهيئته وهويته، بمـــا شـــاهده العقل وبما غاب عنه، فالعلم يقف العقل على عالم الشـــهادة وخصائصـــه وماهيـــته، والوحى يقدم للعقل تفسيرا لما عجـــز عنه العلم من التعرف على عالم الغيب وما فيه ومسائله، كمـــا يعرفه على علل الوجود وغاياته، ومقاصد الخالق سبحانه مـــنه فيكتمل للعقل عناصر المنظومة المعرفية كلها، فيقف العقل

منها على ما استطاع فهمه وادراكه، وما عجز عنه البعض فإن البعض الآخر قد يعلمه، ويأتي الوحي كمعلم للعقل يأخذ بيده ليعرفه ما غاب عنه. ويعطيه الإجابة المطمئنة للنفس والقلب معاً عن علة الوجود، ومقاصد الخالق منه، وغايته فيه، لأن الإجابة عن السؤال المتعلق بالعلل الغائية للوجود ليست من أهداف العلم ولا من مقاصده، لأنه يكتفي بالبحث في الظواهر وأسبابها وتوظيفها، أما الإجابة عن علة الوجود وغايته فلا علاقة للعلم بها لأنها من خصائص الوحي ومقاصده وهي التي تنفي القول بالعبثية عن هذا العالم، ولا مفر للعقل البشري عنها إذا هو لم يتلق إجابة الوحي عن هذا السؤال. لماذا.

وكم ضلت عقول في هذا المقام وذلت أفهام، وتواردت شبهات ولم تجد العقول أماناً ولا النفوس اطمئناناً إلا في تعاليم الوحي قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ١٧].

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان ٣٨، ٣٩].

(٥)

الوحي والكون

قراءة معرفية

لقــد انتقلت المعركة بين الكنيسة والعلم من الغرب إلى العالم الإســلامى عــلى أيدى المستشرقين وتلامذتهم، انتقلت المعركة على أنهــا صــراع بيــن الدين والعلم، واستعملت كلمة الدين هنا بالمعنى المطــلق واخــتفت كــلمة الكنيسة تماماً واستعمل مكانها لفظ الدين بالمعــنى العــام، ثم استعملت كلمة الإسلام بدلاً من الدين فى مرحلة تاليــة لتصــبح المعــركة بين الإسلام والعلم بدلاً من أن تكون بين الكنيســة والعــلم كما هو معروف تاريخياً، وتوالت الكتابات لتؤسس هــذه العلاقــة التناقضــية بين الإسلام والعلم وتولى إثم هذه الفرية مجموعــة من العلمانيين العرب فى مصر ولبنان والمغرب وتونس وكلهم ممن تأثر بالمستشرقين فتغذى منهم بهذه الأفكار المسمومة ولم يحــاولوا أن يفــرقوا فى موقفهم العلمانى بين الإسلام والكنيسة من جــانب ولا بين علماء الإسلام ورجال الكنيسة من جانب آخر، وإنما ثبــتوا هــذه الفرية الظالمة وعملوا على إذاعتها فى أجهزة الإعلام والــندوات والمؤتمرات ليخرج جيل جديد من المشتغلين بالثقافة فى

العـــالم العربى فيتبنى هذه القضية وكأنها إحدى مسلمات العصر التى لا تقــبل نقاشــاً ولا حـــواراً، فإما العلم وإما الدين، وحملوا الإسلام أوزار المسلمين فجعلوه سبباً للتخلف والركود الذى أصاب المسلمين.

ومـــن هـــنا وجـــب علينا أن نوضح موقف الإسلام من العلم والمعـــرفة ليعرف الخاصة والعامة ما فى دعاوى هؤلاء من تضليل وأكاذيب ساعد على الترويج لها المناصب التى ائتمنتهم عليها الدولة فخـــانوا الأمانة واستغلوا مناصبهم فجعلوها منابر لهم ولمن يسير فى فـــلكهم فيـــردد أكاذيبهم ويعتقد صحة أفكارهم. وسوف نعالج علاقة الـــوحى بـــالكون فى هذه العجالة من جانبها المعرفى لنتعرف على مـــنهج القرآن فى تأسس المعرفة بالكون وتوظيفه لأداء مهام معينة ترتـــبط بمقاصـــد الشارع من جانب وتدور كلها حول تحقيق مصالح الإنســـان ودفـــع المضار عنه من جانب آخر. **وسوف تجد** أن منهج القرآن فى قضية المعرفة يختلف عن المدارس الفلسفية فى كثير من جوانب هذه القضية وغاياتها ومقاصدها.

إذ مـــن المعـــلوم أن المعـــرفة لها أركانها الأساسية التى تتم خلالهـــا عملية المعرفة ويكتمل بها الموقف المعرفى، وكثيراً ما تقرأ فى الحديـــث عـــن نظرية المعرفة أن أهم عناصر الموقف المعرفى هى:

١- وسائل المعرفة.

٢- موضوع المعرفة (الكون)

٣- الذات العارفة.

٤- غاية المعرفة ومقاصدها.

وتختلف وجهات النظر بين المفكرين حول هذه العناصر الأربعة حسب ثقافة المفكر وانتمائه المذهبى، فهذا مادى حسى وذاك عقلى مثالى وثالث حدسى فطرى.. الخ.

والتصور الإسلامى للموقف المعرفى قد يلتقى مع بعض هذه المدارس فى تفسيرهم للموقف المعرفى وقد يختلف مع البعض الآخر، وهذا أمر طبيعى، فإن حديث الإنسان عن الموقف المعرفى مهما علا شأنه لابد أنه يحمل معه طابع هذا الإنسان ولون ثقافته ومذهبه الفكرى، كما يعبر عن وجهة نظره التى تأثر بها وانحاز إليها، وهذا الخلاف يفسر لنا تعدد وجهات النظر الفلسفية حول الموقف المعرفى بكامله، بالتالى يفسر لنا الفوارق الأساسية بين الحضارات الإنسانية من عصر إلى عصر ومن بيئة ثقافية إلى أخرى.

فالحضارات الإنسانية تستمد أصولها وأهدافها ومقاصدها فى الموقف المعرفى، من وجهة نظر الإنسان التى تحمل معها طابعه ولون ثقافته وعوامل بيئته الزمانية والمكانية. أما فى الحضارة الإسلامية فإنها تستمد أصولها وغايتها ومقاصدها المعرفية من الوحى المنزه عن التأثر بوجهات النظر الإنسانية، المتعالى على عوامل الزمان والمكان.

وبالتالى فإن وظيفة الإنسان فى الموقف المعرفى ليست مرتبطة بتحقيق غايته وأهدافه الشخصية بقدر ما هى مرتبطة بتحقيق أهداف الوحى ومقاصده من الموقف المعرفى.

إن أهداف الإنسان ومقاصده من المعرفة قاصرة على تحقيق مطالبه هو ومقاصده هو، وأهوائه هو، حتى ولو كان ذلك على رقاب الآخرين ومقاصدهم، أما أهداف الوحى ومقاصده فهى تحقيق الخير لكل بنى الإنسان. وتوظيف المعرفة لصالح كل بنى الإنسان، فأهداف الوحى ومقاصده عامة للإنسان من حيث هو إنسان مؤمناً كان أو كافراً. بخلاف المذاهب الفلسفية الأخرى فإن مقاصدها خاصة وغاياتها قاصرة على اتباعها فقط.

ففى تصور الإسلام لقضية المعرفة ومقاصدها نجد الإنسان مؤتمن على هذا الكون، مكلف بعمارته، مطالب باكتشاف قوانينه كما هو مكلف بتوظيف العلم والمعرفة حسب أوامر الوحى وليس حسب أهواء العلماء ومقاصدهم، يوظف الكون لتحقيق خير الإنسان عامة وليس لتحقيق جموح المهووسين، نعم إن هناك فارقاً كبيراً بين تصور الإسلام لأهداف المعرفة ومقاصدها وأهداف العلماء ومقاصدهم من المعرفة، ولعل الفارق يبدو واضحاً بين عالم يوظف علمه ومعرفته لصالح الإنسان وعمارة الكون، وعالم آخر يوظف علمه لتدمير الإنسان وخراب هذا الكون فالعالِم الثانى يحقق بعلمه

أهدافــه الشخصــية ومقاصده من المعرفة وتوظيفها أما العالِم الأول فيحقق أهداف الوحى ومقاصده ليعم النفع لكل بنى الإنسان.

والقــرآن الكــريم يربط فى تناسق عجيب بين أركان المعرفة الســابقة ووظيفـــة الإنســـان من جانب وبينه وبين الكون كموضوع لــلمعرفة مــن جــانب آخر، كما يربط بين هذين الركنين وأهداف المعرفة وغايتها من جانب ثالث، ليكتمل بذلك وحدة الموقف المعرفى فى موضــوعه ، وفى غايــته ، وفى وسائله، ويكون الإنسان نفسه باعتــباره ســميعاً بصيراً عاقلاً ذاتا عارفة، وتتوحد به ومعه وسائل المعــرفة وأدواتهـــا، وباعتباره جزءًا من هذا العالم يكون هو نفسه موضــوعاً لــلمعرفة، وفيه يتوحد الموقف المعرفى كله وبه تتحقق أهدافــه ومقاصــده ، فيكون هو الذات العارفة وهو وسيلة المعرفة، وهو موضوع المعرفة، وبه تتحقق غاية المعرفة، فالموقف المعرفى كله يتوحد فى الإنسان.

◈ الإنسان ومسئوليته عن الكون :

أ- الكون الطبيعى :

لقــد خلق الله الإنسان على نحو جعله قابلاً ومستعداً للمعرفة، وهــبه أدوات تحصــيل المعــرفة من الحواس والعقل، قال تعالى : ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ٧٨].

وكمـا خـلق الله الإنسـان عـلى هذا النحو فقد وضعه أمام مسـئوليته المباشـرة عـن حسن توظيف أدوات المعرفة وتحصيل المطـلوب منها فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾[الإسراء:٣٦].

ومـن المفيـد هنا أن نلاحظ عند قراءة الآيتين السابقتين من سـورة الـنحل وسورة الإسراء نجد أن أدوات المعرفة التى ذكرت فيهمـا جاءت بنفس الترتيب (السَّمْعَ . الْبَصَرَ . الْفُؤَادَ) وتكرر ذكر هذه الأدوات بنفس الترتيب فى القرآن الكريم كثيراً.

وحيـن نلاحـظ وظـائف هذه الأدوات ودورها فى تحصيل المعرفة نجد أن حاستى السمع والبصر تتعلق وظائفهما بعالم الشهادة فقط، فأنت تسمع وتبصر ما هو موجود متعين فى عالم الشهادة. أما الفـؤاد فيتعدى هذا العالم الحسى إلى تحصيل المعارف المجردة عن الحـواس، إلى معـرفة القوانيـن والعلاقـات الكامـنة بين الأشياء المحسوسـة، إلى تحصـيل المعارف الكلية، إلى معرفة الخصائص والطـبائع أمـا حاستا السمع والبصر فيقتصر دورهما على تحصيل المعـارف الجزئية الحسية الآنية اللحظية فقط، أما الفؤاد فيتجاوز فى وظيفـته كـل المعـارف الجـزئية إلى المعارف الكلية كما يتجاوز المعـارف الآنيـة الـلحظية إلى الماضى والمستقبل. ويتعرف على الماضـى كما يتصور المستقبل ويتخيله. وبذلك يستطيع الإنسان أن

يجمـــع فى أطراف الموقف المعرفى الزمن بعناصره الثلاثة الماضى والحاضـــر والمســـتقبل، ومـــن هنا يستطيع أيضاً أن يستخلص من الموقـــف المعرفى الدرس المستفاد من الماضى ليضىء به الحاضر ويرسم به المستقبل لتتحقق غاية المعرفة وأهدافها المطلوبة.

ولقد وضع القرآن الكريم أمام الإنسان مجموعة من التساؤلات الـــتى يتعلق بعضها بالكون الطبيعى ، ويتعلق بعضها الآخر بالكون الاجـــتماعى، والتى ينبغى أن يشغل نفسه بالتأمل فيها ويحاول البحث عن الإجابة عنها خلال توظيفه لأدوات المعرفة التى منحها الله له.

وخـــلال تأملـــنا لهذه التساؤلات القرآنية نجدها تتعلق بمواقف متـــنوعة يعيشـــها الإنســـان فى صباحه ومسائه، قد يتنبه المرء إلى بعضـــها فيقف أمامها متسائلاً متعجباً، وقد يغيب عن بعضها الآخر فـــلا ينشغل بها ولا يفطن إليها، فيسوقها القرآن إليه فى شكل سؤال يحـــتاج إلى إجابـــة لابـــد أن يشغل المرء بها نفسه، لأن طرح هذه التســـاؤلات والانشـــغال بهـــا تسهم إلى حد كبير فى اكتمال الموقف المعـــرفى، وتقـــود الإنسان إلى تحقيق المقاصد والغايات الإلهية من الموقـــف المعـــرفى، لأنهـــا تنبه الإنسان إلى النظر فيما يشاهد من ظواهـــر كونيـــة يتأمـــلها بعقله ويتساءل حولها . كيف خلقت، لماذا خـــلقت ومـــن خلق.. ولماذا جاءت على هذا النحو من الوجود دون

غيـــره، وما سر ارتباطها بما سبقها وما لحق بها من الظواهر.. الخ هـــذه التساؤلات والقرآن الكريم يسوق لنا هذه التساؤلات فى صيغة الأمر الإلهى المباشر.

فكمـــا أمر بالصلاة والزكاة والحج أمر كذلك بالنظر والتساؤل حـــول هـــذه الظواهر الكونية، ولا فرق عندى بين صيغة الأمر فى الحالتين من حيث ضرورة وجود ما أمر به الوحى وتحصيله إلا من حيث إن الأمر بالصلاة والزكاة يتعين على كل مسلم القيام به والأمر بالتساؤل هنا حول مظاهر الكون وظواهره يكفى فى القيام به بعض مـــن أهـــل الاختصاص والعلماء والباحثين فالأمر بالعبادات فرض عينى والأمر بالتساؤل فرض كفائى . لكن ذلك لا يعنى عدم وجوده ولا يعنى خلو المجتمع ممن ينهض بهذه المسئولية.

وإذا كـــان الفرض العينى يتعين على كل فرد القيام به ويتعين مسئوليته عنه أمام الله، فإن الفرض الكفائى يتعين على مجموع الأمة القيـــام بـــه، وتتعين مسئولية الأمة عنه أمام الله. وإذا كانت مسئولية الفـــرض العينى مسئولية شخصية فردية، فإن مسئولية فرض الكفاية مســـئولية جماعية يتعين على شخص الحاكم والراعى أن يكلف من يـــنهض بهـــا نيابة عن مجموع الأمة إذا لم يتقدم أحد للنهوض بها. وتلك قضية على جانب كبير من الأهمية فى النهوض بالأمة والترقى

بهـا مـن مسـتوى الجهل إلى مستوى العلم، ذلك أن الأمر الإلهى بالـنظر والـتفكر قد تكرر وروده فى القرآن بصيغ متعددة وأساليب مختـلفة وحول قضايا متنوعة تناول عالم الشهادة بأنواعه المختلفة. بدءًا من الأمر بالنظر فى بدء الخلق وبدء خلق الإنسان وكيفية الخلق.

قـال تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ [العنكبوت : ٢٠].

﴿فَلْيَـنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس ٢٤ : ٢٨].

﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق : ٥ : ٨]..

﴿قُـلِ انْظُـرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس : ١٠١].

﴿أَفَـلا يَـنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَـتْ، وَإِلَـى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية : ١٧ : ٢٠].

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِـنْ فُرُوجٍ، وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ

زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق:٦-١١].

ومن اللافت للنظر فى هذه الأوامر الإلهية وفى هذه التساؤلات أنها جاءت أحياناً فى صيغة الأمر المباشر ﴿قُلِ انْظُرُوا﴾، وأحياناً فى صيغة الاستفهام الانكارى الذى يفيد التعجب من عدم الانشغال بهذه التساؤلات ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ مما يتضمن اللوم والعتاب وأحياناً يجىء فى صيغة الأمر المؤكد باللام ليفيد الإلزام والإيجاب ﴿فَلْيَنْظُرِ...﴾.

ولا شك أن تعدد الصيغ وتنوعها حول هذه التساؤلات يشير إلى ضرورة الانشغال بها والاهتمام بها كجزء أساسى فى تنوير الوعى بالكون وتثقيف العقل الجماعى للأمة وبناء الجسور التى يعبر خلالها الإنسان من رؤيته الحسية لعالم الشهادة إلى بناء رؤيته العقلية لما وراء عالم الشهادة. وهذا ركن أساسى فى بناء الموقف المعرفى، أن يجعل عالم الشهادة منطلقاً له إلى عالم الغيب، أن يتخذ عالم الشهادة دليلاً له لإثبات ما وراءه ومنهجه فى ذلك هو طرح هذه التساؤلات القرآنية على العقل لينتقل من المحسوس إلى اللامحسوس ومن الشهادة إلى الغيب فى شكل تتوحد فيه الرؤيتان معاً الحسية والعقلية بحيث لا تنفصل إحداهما عن الأخرى ، رؤية الحواس لعالم الشهادة وظواهره ومظاهره ورؤية العقل والفؤاد لما وراء عالم

الشـــهادة، فـــلا يقتصر الموقف المعرفى على مجرد الرؤية الحسية للأشياء مجزأة منفصلاً بعضها عن بعض، بل لابد من الرؤية العقلية أيضـــاً لتجمع شتات المحسوسات فى شكل كلى منظم دقيق ينبئ عن حكمة صانعه، ويدل على العناية الإلهية بالكون والقصد الغائى منه. وهـــذا لا يـــتأتى إلا بالمزاوجة بين رؤية الحواس ورؤية العقل معاً. ولعـــل هـــذا يفســـر لنا السر وراء جمع القرآن بين الإدراك الحسى والإدراك العقـــلى معـــاً ولـــم يفصل بينهما أبداً فجاء بذكر الفؤاد أو الأفئدة بعد السمع والبصر فى كل موارد هذه الحواس فى آيات الذكر الحكيم.

ب- الاجتماع البشرى :

وكمـــا أمر القرآن بالنظر فى الكون الطبيعى والتساؤل حول بدء الخلق وأصله وكيفيته فقد أمر أيضاً بالنظر والتساؤل حول سنن الله الكونيـــة وعن قوانين الاجتماع البشرى وآثارها فى تاريخ الأمم الماضـــية، وكيـــف قامت الممالك واستقرت، وكيف بادت وانحدرت وكيف ازدهرت الحضارات ولماذا انهارت وانكسرت.

ومـــا ســـبب قيـــام الممـــالك واستقرارها، وما سبب انهيارها وزوالهـــا ليأخذ المسلم من تاريخ الممالك درساً وعبرة يستضئ بهما فى اســـتقرار حاضره وبناء مستقبله. ولقد نبه القرآن فى آيات كثيرة إلى هذه القضية خلال ما قصّه علينا من تاريخ الأمم الماضية.

قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الروم ، فاطر]

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس : ٣٩]

وتكرر الأمر بالنظر فى عاقبة المكذبين، والمفسدين، والمجرمين، ليبين لنا القرآن الكريم أن الظلم والفساد والبغى فى الأرض بغير الحق وتكذيب الرسل كل ذلك وما يترتب من سلوك اجتماعى يتناقض مع أوامر الوحى كان سبباً فى انهيار الممالك واندثار الحضارات، والعلاقة الثابتة بين استقرار الممالك وسيادة العدل والإنصاف مطردة لا تتخلف أبداً فهى أشبه بالعلاقات السببية الكامنة فى الكون الطبيعى فإذا ما وجد السبب حصلت النتائج سواء كان ذلك على مستوى الكون الطبيعى أم على مستوى الكون الاجتماعى.

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف: ٥٩]، فربط سبحانه بين هلاك الأمم وانهيار الممالك والظلم ، وكان ضياع العدل وسيادة الظلم سبباً طبيعياً فى انهيار الملك، ولك أن تتأمل معى أسباب انهيار الملك فى تاريخ الأمم الماضية والحاضرة أيضاً وكيف نبه القرآن الكريم إليها وأشار إلى خطورة إهمالها أو غض الطرف عنها من قبل المسئولين. ومن أهم هذه الأسباب سيادة الظلم وضياع العدل. مما يترتب على ذلك ضياع الحقوق والأمانات

ويــأس الضعفاء وطمع الأقوياء وتفشى المحسوبية والوساطات وهذا أخطــر ما تصاب به المجتمعات. ولذلك فقد ربط القرآن الكريم بين الظلم والإهلاك فى أكثر من آية . قال تعالى:

﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم : ١٣].

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف : ٥٦].

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس : ٣٩].

وهــذه إحــدى السنن الكونية فى الاجتماع البشرى، وهى لا تتخــلف أبداً. سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ولا يغيب عن الذهن أن السنن الكونية لا علاقة لها بالدين أو الثقافة. فمتى وجدت أسبابها وقعت النتائج، سواء كانت الأسباب فى أمة كافرة أو أمة مسلمة. لأن أســباب استقرار الملك أو انهياره لا علاقة به بدين ولا ثقافة. ولذلك كان من مواريث أمتنا أن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيــم الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة، وهذا أمر ينبغى أن يستقر فى أذهــان الجميع حتى إذا نظر المسلم المعاصر حوله فى شرق البلاد وغربها فوجد بلاد أوربا وأمريكا قد استقرت فيها الممالك وازدهرت فيهــا مظاهــر العمران وسادت لغة العلم فلا يعتبر ذلك خروجاً عن الســنن الإلهية فى الكون، فهذا أمر طبيعى. حيث ساد العدل واختفى الظــلم، وأصبح العالم آمناً فى بيته، وآمنا على عرضه، وآمنا على مالــه، وكــان للإنسان هناك قيمة، ولكلمة العلم وصوت العالم أثراً، وتلك مؤشرات الاستقرار والأمان.

وعلى العكس من ذلك لا ينبغى أن يعجب المرء إذا رأى التخلف والهلع النفسى والاضطراب الاجتماعى سائداً فى بلاد كثيرة من أوطان المسلمين، فليس ذلك شيئاً غريباً عن مسار السنن الكونية ولا هو شذوذ عن منطقها، حيث يسود الظلم والخسف، والتنكيل، والتغريب، والتصفية الجسدية أحياناً لمن يرفع صوته فى وجه الظالم ليقول له قف وارحم الرعية من ظلمك.

وعليك أن تدور ببصرك وإن استطعت فببصيرتك لترى أين مكانة العلم ومكانة العالم فى بلاد المسلمين وأين نظيرها فى بلاد غير المسلمين، وكم ينفق على البحث العلمى والعلماء فى بلاد المسلمين، وفى غير بلاد المسلمين وسوف تجد نفسك بعد هذه المقارنة البسيطة موقنا تماماً أن سنة الله لا تتخلف فى كونه أبداً، وسوف تؤمن معى أن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة، وهذا قانون عام له أثره الفعال فى طبائع العمران البشرى ازدهاراً أو انهيارا، يستوى فى ذلك المجتمع المؤمن والمجتمع الكافر على حد سواء، لأن سنن الله محايدة لا تجامل أحداً.

ولم يكتف القرآن الكريم بالإشارة إلى هذا المبدأ فقط، وإنما أشار إلى كثير من المبادئ التى هى بمثابة القوانين الاجتماعية العامة. وإن شئت فقل هى أسباب تتعاون فيما بينها لتشكل مجموعة

السنن الاجتماعية التى يترتب عليها استقرار الممالك أو انهيارها، وإذا كان مبدأ العدل يأتى فى مقدمتها فهناك أيضاً مجموعة من الضوابط السلوكية التى تتعلق بالأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية بعضهم ببعض، مثل ظهور الفساد، وتفشى المنكر، واللامبالاة، وضياع رابطة الأخوة الدينية، وسيادة عيشة الترف والرفاهية التى تتحول على يد المترفين من مستوى الوسائل إلى مستوى الغايات والمقاصد، مما يترتب على ذلك من خلل فى ترتيب الأولويات فى المجتمع، حيث تتحول الوسائل إلى غايات ومقاصد، وبالتالى تتنافس الأفراد والمجتمعات فى أمور لا يجوز التنافس فيها وتتناسى أمورا هى أولى بالتنافس والاهتمام وذلك كله بسبب الخلل الواقع فى ترتيب الأولويات فى المجتمع ومن هنا سادت مظاهر الانحلال والفساد كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء : ١٦].

هذه القوانين الاجتماعية وضعها القرآن الكريم أمام المسلم ليتأملها بعين البصيرة كما يتأمل القوانين الطبيعية تماماً بعين البصر فكلاهما خاضع لقانون السببية، وكما أن الأسباب لا تتخلف عنها مسبباتها فى الكون الطبيعى إلا عند حدوث المعجزة. فكذلك الأمر فى الكون الاجتماعى. إذا وجدت أسباب انهيار الممالك كالظلم، والفساد، اللامبالاة، وتفشى المنكرات ضياع العلم وإهمال دور العلماء... الخ، فلابد أن تتبع المسببات أسبابها وهذا ما حذر منه

القــرآن الكريم فى أكثر من آية، وتكررت إليه الإشارة فى أكثر من صــيغة لتفيد كلها معنى التحذير من الغفلة عنها، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] . وقــال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُــرُوا كَيْــفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وتكرر ذلك فى القرآن كثيراً، ومن له خبرة باللغة ودلالة هذه الصيغ ﴿ أَفَــلَمْ يَسِيرُوا ... أَوَلَمْ يَسِيرُوا ...﴾ يعلم تماماً أهمية الإشارات القــرآنية إلى اكتشاف السنن الكونية التى نبه إليها القرآن وأثرها فى العمران البشرى. ولكن للأسف الشديد لقد غفل المسلمون عن النظر فى هذيــن الــنوعين مــن القوانين. قوانين الكون الطبيعى، وقوانين الكــون الاجتماعى. أو تغافلوا عنهما أو أريد لهم وبهم أن ينصرفوا عــن ذلــك.. فكــان واقعهــم المتردى علميا واجتماعياً هو النتيجة الطبيعية لهذه الغفلة.

ولا ينبغى لأحد أن يتشدق بلغو الحديث فيربط بين هذا الواقع المؤلــم الذى يعيشه المسلمون والإسلام ليجعل الإسلام سبباً فى هذا الواقــع. فــإن الإســلام برىء مما فيه ومما عليه المسلمون من هذا التخــلف والانهيار، ولو كان للإسلام الكلمة العليا لما وقع المسلمون فى هذا القيد الحديدى من التخلف والانهيار الذى يعيشون فيه.

(٦)

الكون موضوع المعرفة

والمقصود هنا هو هذا الكون بطرفيه، الكون الطبيعى والكون الاجتماعى، وكلاهما صفحة مفتوحة أمام العقل البشرى يقرأ فيها ويقرأ منها على قدر استطاعته، يقرأ فى العالم الأرضى كما يقرأ فى العالم العلوى وما يحتويه هذا وذاك من مظاهر وظواهر فالكون كله خاضع لسلطان العقل قابل لأن يعرف، بل إنه يجود فى كثير من الأحيان بإظهار أسراره والكشف عن قوانينه وعلى الإنسان أن يلاحظ ويتأمل وأن يربط بين الظواهر وأسبابها ليتعرف على العلاقات الكامنة بين ظواهر الكون.

وفى التصور الإسلامى نجد أن هذا الكون موضوع المعرفة لم يخلق عبثاً، ولا مصادفة، وإنما خلق لتحقيق غاية مقصودة ووظائف منشودة. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ﴾ .

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ .

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ فقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾.

وهذه قضية حاسمة فى الفرق بين التصور الإسلامى للمعرفة وغاياتهـا وأهدافهـا والتصور الفلسفى عند الماديين، فلا مجال هنا لـلقول بالعبـثية أو المصادفة، والكون كله من سمائه إلى أرضه ما علمـناه منه وما لم نعلمه مظهر من مظاهر الحكمة والإتقان والعلم. عـلم ذلـك مـن علمه وجهله من جهله، إنه صنع الله الذى اتقن كل شىء.

﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِـنْ فُطُـورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك : ٣، ٤].

وهذا عكس ما تجده لدى المدارس الفلسفية المادية.

فـالكون عـندهم ليس له غاية ولا وظيفة، ولذلك كان القول بالعبـثية أو المصـادفة هو الجواب عن علة الخلق وسبب الوجود، وبالـتالى فقد قطعوا العلاقة بين الكون وخالقه من جانب وبينه وبين غايـته وأهدافـه مـن جانب آخر، وأصبحت الحياة كلها مظهراً من مظاهـر العـبث والـلهو فلا غاية عندهم من خلق الكون ولا هدف مقصود وإنما هى أرحام تدفع وقبور تبلع كما قال الدهريون.

وفى التصـور الإسـلامى تتجسـد الغايـة والمقاصد وتنتفى المصـادفة والعبثية، وفى القرآن الكريم نجد الإشارات المتكررة التى تـلفت نظـرنا إلى وظـائف هـذا الكون وغاياته التى أمرنا الوحى

بالكشف عنها والإيمان بها ، والعمل فى ضوئها وبمقتضاها، والسير نحــو تحقيــق هذه الوظائف وتلك الغايات وعدم التعارض معها أو العمل على عكس مقتضاها. ومن أهم هذه الوظائف ما يلى :

◈ الوظيفة الأولى :

١- إن هذا الكون بطرفيه الطبيعى والاجتماعى آية دالة على خالقــه، وكل جزئية منه تحمل فى طياتها هذا المعنى. إنها آية دالة عــلى أن لها خالقاً، فهى لم توجد من العدم، وهى لم تخلق نفسها كما قــال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٦].

ويؤكــد القرآن الكريم فى الكثير من الآيات على هذه الوظيفة وعــلى أهميــتها فى التعامل مع الكون موضوع المعرفة باعتبار أن الكون كله آية وبرهانا عملى واقعى على أن له خالقاً.

وعليك أن تقف معى أمام هذه الآيات متأملاً لتعرف أهمية هذه الوظيفــة فى دلالة الكون على خالقه قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات : ٢٠، ٢١].

﴿وَآيَــةٌ لَهُــمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُــلُونَ، وَجَعَلْــنَا فِيهَــا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُــونِ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ، ﴾ [يس : ٣٣، ٣٤].

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف : ١٠٥].

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف : ٤٨].

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ٩٥-٩٩].

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[يونس:٥-٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد:٣، ٤].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ، وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٦-٦٩].

ولقد تكرر التذكير بهذه الآيات البينات فى القرآن الكريم أحياناً فى صيغة الإخبار عنها نصا صريحاً كما فى سورة الروم :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾

[الروم: ٢٠ - ٢٥].

وأحياناً يسوق هذه الآيات فى صيغة الاستفهام التقريرى.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ : ٦-١٦].

وأحيانـاً يـأتى الاستفهام متضمناً معنى السخرية والاستهزاء ممـن أشـرك أو أنكـر هذه الآيات أو نسب الخلق إلى غير الخالق سـبحانه فيسـألهم عمـن خلق هذه الآيات، قال تعالى :﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ، أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْـنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ، أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ

الـلَّه قَـليلا مَا تَذَكَّرُونَ، أَمَّنْ يَهْديكُمْ في ظُلُمَات الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِـلُ الـرِّيَاحَ بُشْـرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَته أَئلَهٌ مَعَ اللَّه تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ منَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَئلَهٌ مَعَ اللَّه قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادقينَ﴾ [النمل: ٦٠-٦٤].

وعليك أن تراجع آيات القرآن المكى الذى عنى بتأسيس اليقين وبـناء العقيدة وما ذكره من آيات بينات دالة كلها على خالقها سواء كـانت هـذه الآيـات تتعلق بالآفاق أو بالأنفس وسواء كانت تتعلق بـالكون الطبيعى وقانونه، أو بالكون الاجتماعى وسنن الله فى قيامه أو انهيـاره. وكـلها تؤكـد أن هذا الكون آية، وكل جزئية منه آية. وصدق الشاعر لبيد حين قال :

وفـى كـل شـىء لـه آيـة ... تـدل عـلى أنـه الخـالق

وكمـا أرشدنا القرآن إلى التأمل فى الكون الطبيعى وآيات الله فيه نبهنا كذلك إلى تأمل آيات الله فى الكون الاجتماعى وسنن الله فى اسـتقرار المـلك فيه، فكان يذكر القصة وما يحيط بها من ملابسات وعوامـل الاسـتقرار أو الانهيار ثم يختمها بقوله إن فى ذلك لآية.. ولقـد تكـرر ذلك فى القرآن كثيراً ليفيد منه المسلمون ويعوا الدرس ويأخذوا العبرة كما قال سبحانه، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْـبَابِ مَـا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسـف :١١١]. وقال سبحانه : ﴿وَكُـلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي

﴿هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود : ١٢٠]. فبالإضافة إلى تثبيت فؤاده (ﷺ) كان على المسلمين أن يفقهوا الموعظة ويتذكروا سنة الله فى الأمم الخالية ويجب على المسلم أن يراجع ما قصه القرآن الكريم من أحوال الأمم الماضية ليعلم يقيناً أن السنن ماضية فى الكون الاجتماعى بنفس الدرجة التى تعمل بها فى الكون الطبيعى، وكما أن النار سبب فى الإحراق فكذلك الظلم والفساد سبب فى انهيار الملك ولا فرق بين تحقق القانون هنا أو هناك إذا وجد المقتضى التام وارتفعت الموانع. وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

◈ الوظيفة الثانية :

٢- الكون مرآة تتجلى فيه صفات الخالق :

يرتبط بالوظيفة السابقة ارتباطاً مباشراً أن هذا الكون وما يحتويه من آيات بينات دالة على خالقها. أنه فى نفس الوقت مرآة تنعكس على صفحتها صفات الصانع، وتتجلى فيه آثار صفاته الإلهية فما أشبه الكون بطرفيه الطبيعى والاجتماعى بمعرض صناعى تظهر فى أرجائه أنواع الصنعة الإلهية وتتجلى فى أقطاره الأرضية وعوالمه العلوية صفات الحق سبحانه من العلم الذى تنكشف به دقائق هذا الكون وتتجلى غوامضه، ومن الإرادة الشاملة العامة، والقدرة المطلقة، والحكمة التى تنبئ عنها كل جزئيات هذا الكون صغيرة أو كبيرة ظاهرة وباطنة، علوية وسفلية.

نعم. إنه معرض للصنعة الإلهية بفتح أبوابه أمام العقل من خلال آياته، وللعقل أن يجول فى أنحاء هذا المعرض يقرأ فيه ويقرأ منه على قدر استطاعته، وما يراه العقل فى هذه الصنعة من مظاهر المعرفة والإحكام والقدرة، فعليه أن يعلم أن هذه المظاهر مستمدة من صفات صانعها وكلما ازداد العقل قراءة فى هذه الصنعة ازداد فقها بها، فقهاً لها وقربا من صانعها فيمتلئ قلبه شوقاً، وحباً ، ومعرفة به، ويتولد فى القلب خشية منه، وطلباً للمزيد من العلم به والعلم منه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾.

وحين تقرأ آيات القرآن الكريم تجد الحق سبحانه ينبهنا فى كثير من الآيات إلى مظاهر صفات الخالق سبحانه التى تنعكس آثارها فى مفردات هذا الكون، وخاصة تلك الآيات التى أقسم بها القرآن الكريم والتى تتجلى فى كل واحدة منها آثار صفات الله الحق سبحانه من دقة، وإتقان، وإرادة، وقدرة، وعلم، وحكمة.

وعليك أن تراجع ما أقسم به القرآن الكريم من آيات الله فى الآفاق أو آيات الأنفس، وتتأمل ما فيها من دلائل حكمته، وطلاقة قدرته، وشمول إرادته. قال تعالى :

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الأنشقاق: ١٦-١٨]

﴿فلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير : ١٥-١٨].

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة : ٧٥، ٧٦].

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩].

وإذا كانت هذه الآيات قد صرح القرآن فيها بلفظ القسم فهناك آيات أخرى أقسم بها القرآن بدون تصريح بلفظ القسم وليست أقل دلالة على صفات الخالق من سابقتها، قال تعالى :

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس ١ : ٨].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى، وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ [الليل ١، ٢].

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق ١ : ٣].

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج : ١].

وهناك آيات أخرى نبهنا إليها القرآن الكريم على سبيل الإخبار عنها لنقرأ فيها حكمة الصانع وقدرته قال تعالى:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٨ : ٤٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام ٩٥ : ٩٧].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس : ٥].

والتذكير بهذه الآلاء الدالة على صفات الخالق سبحانه كثيرة الورود في القرآن الكريم ولم تقصد من ذكر هذه الآيات إلا أن نلفت الانتباه إلى هذه الوظيفة الكونية الغائبة عن العقول، إن كل جزئية فى هذا العالم تحمل فى دلالتها أثراً من أثار صفات الخالق لها. واستجلاء هذه الآثار إحدى مهام العقل ووظيفته ولا سبيل للعقل إليها إلا إذا وقف أمامها متأملاً متعجباً متسائلاً كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

فأنت إذا ألقيت سمعك أو قلبت ناظريك فى العالم الذى تعيشه ترى فيه من العجائب ما يبهر العقول، فانظر ملياً فى هذه الأرض التى جعلها الله مهاداً للإنسان، وجعلها كفاتا لحاجاته من الطعام والشراب يُلقى فيها البذرة والحبة فتتغذى بماء واحد، وتربتها واحدة وتتنفس هواء واحداً كما قال سبحانه : ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، ومع وحدة الأصول والمصادر تختلف الألوان وتتنوع المذاقات.

فهذا ثمره حلو وذاك مر وهذا حامض وذاك حار، فانظر كيف تتحد الأصول وتتنوع الثمار، وتختلف ألوانها فهذا لونه أبيض وذاك أحمر أو أخضر كما قال سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر : ٢٧]. ليقرأ فيها العقل طلاقة قدرة الخالق وكمال إرادته، كيف يتحول الماء العذب فى جذوع هذه الثمار إلى مرارة فى بعضها وحلاوة فى بعضها الآخر، كيف يتم ذلك داخل هذا المصنع النباتى إلا إذا كان الصانع مطلق الإرادة والقدرة يفعل ما يشاء وكيف يشاء، ولا يقولن أحد إن ذلك محكوم بطبيعة البذرة وخصائصها لأن ذلك من لغو الحديث فإن الذى طبع الثمار وخلقها على هذا النحو العجيب هو هو الذى جعلها مصنعا لهذه الثمار المتنوعة طعماً ولوناً وشكلاً.

وإذا تأملت جسم الإنسان فإنك تقرأ فيه من آثار الحكمة والعلم ومن صفات الخالق ما يسعه وعاء عقلك وما غاب عنك أكثر وأكثر فالجسم غذاؤه واحد، وشرابه واحد، وهواؤه واحد، ولكن هذه المواد تتحول فى جسم الإنسان إلى طاقات متنوعة الوظائف.

فكيف تتحول هذه المواد إلى طاقة باصرة فى العين.

وكيف تتحول إلى طاقة سامعة فى الأذن.

وكيف تتحول إلى طاقة هاضمة فى المعدة.

وكيف تتم عملية تصنيع الدم بمكوناته المختلفة.. وكيف وكيف... ألا يقرأ العقل فى هذا كله آثار الصفات الإلهية من الحكمة والعلم والقدرة.

ولقد أشار القدماء إلى بعض هذه المعانى كالإمام الأشعرى فى رسالة أهل الثغر وابن القيم فى اغاثة اللهفان وابن رشد فى مناهج الأدلة ما بين ايجاز واطناب ثم جاءت الكشوف العلمية فكشف الستار عن كثير من هذه الغوامض، وأظهرت الكثير من معالم الحكمة والتقدير الإلهى فى مفردات هذا العالم، والتى نبه القرآن الكريم إلى كلياتها أحياناً، وإلى مفرداتها أحياناً أخرى، ولقد وقف العلماء المعاصرون أمام حشرة النحلة فى حيرة كيف يتم تصنيعها للعسل وكيف يتحول غذاء النحل إلى هذا الشراب. متسائلين عن أسرار

صنعه وهو الشافى لكثير من الأمراض، ووضعوا الكثير من المؤلفات التى حملت معها عجبهم وإيمانهم بحكمة الصانع واتقان الصنعة فى هذه الحشرة الضئيلة، وكذلك الحيوان. كيف يتم تصنيع اللبن واستخراجه من بين فرش ودم سائغاً للشاربين.

ألم تشاهد يوماً ما حيواناً يداعب طفله الصغير وكيف يحنو عليه، كيف يحمله بين فكيه لينقله من مكان إلى آخر أكثر أمناً ومجلبة للاطمئنان.

ألم تشاهد طيراً وهو يطعم صغيره ويضع حبات الطعام فى فيه بطريقة هندسية تلفت النظر؟ إن هذه المظاهر وغيرها كثير لابد أن تنبه الإنسان ليتساءل حولها. من أودع الرحمة فى قلب هذا الحيوان المفترس حتى صار رحيماً بطفله؟ من علم الطير كيف يلتقط الغذاء ويختزنه ويحمله من مكان قصى ليضعه فى فم طفله؟ من علم طفل الحيوان كيف يلتقط ثدى أمه بطريقة تدل على أنه قد تدرب عليها منذ زمن بعيد؟

إن هذه المشاهدات كلها تحمل معها آثار صانعها وصفاته من الرحمة، والعلم، والحكمة، والقدرة، والإرادة، مما يدل على أن الكون كله مظهر من مظاهر صفات الحق سبحانه يقول أبو الحسن الأشعرى مشيراً إلى هذه المعانى الدقيقة: ويدل ترتيب ذلك على محدث قادر حكيم، من قبل أن ذلك لا يجوز أن يقع باتفاق، فيتم من

غير مرتب له، ولا قاصد إلى ما وجد منه فيها دون ما كان يجوز وقوعه عليها من الهيئات المخالفة لها، وجواز تقدمها فى الزمان وتأخرها، وحاجتها بذلك إلى محدثها ومرتبها، ثم يضرب مثالاً شارحاً لمعنى القصد والإرادة الإلهية والغاية المطلوبة وتحققها دون غيرها فيقول "لأن سلالة الطين والماء المهين يحتمل من الهيئات ضروباً كثيرة لا يقتضى واحد منها سلالة الطين ولا الماء المهين بنفسه، ولا يجوز أن يقع شيء من ذلك فيها بالاتفاق لاحتمالها لغيره، فإذا وجدنا ما صار إليه الإنسان فى هيئته المخصوصة به دون غيره من الأجسام، وما فيه من الآلات المعدة لمصالحه كسمعه وبصره وشمه وحسه وآلات ذوقه، وما أعد له من آلات الغذاء التى لا قوام له إلا بها على ترتيب ما قد أحوج إليه من ذلك، حتى يوجد فى حال حاجته إلى الرضاع بلا أسنان تمنعه من غذائه، وتحول بينه وبين مرضعته، فإذا نقل من ذلك وأحوج إلى غذاء ولا ينتفع به ولا يصل منه إلى غرضه إلا بطحنها له، جعل له منها بقدر ما به الحاجة فى ذلك إليه، والمعدة المعدَّة لطبخ ما يصل إليها من ذلك وتلطيفه حتى وصل إلى الشعر والظفر وغير ذلك من سائر الأعضاء، فى مجار لطاف قد هيئت لذلك بمقدار ما يقيمها، والكبد المعدَّة لتسخينها بما يصل إليها من حرارة القلب، والرئة المهيأة لإخراج بخار الحرارة التى فى القلب، وإدخال ما يعتدل به من الهواء البارد وباجتذاب المناخر له وما فيها من الآلات المعدة لخروج ما يفضل من الغذاء عن مقدار الحاجة فى مجار ينفذ منها ذلك.. وغير ذلك مما يطول

شرحه مما لا يصح وقوعه بالاتفاق، ولا يستغنى فيما هو عليه من مُقدِر له يرتبه.. ولا مدبر.. كما لا يصح أن تترتب الدار على ما يحتاج إليه فيها من البناء بغير مدبر يقسّم ذلك فيها ويقصد إلى ترتيبها"(١).

إن المعانى التى نبه إليها الأشعرى فى بنية الإنسان توجد كذلك فى كل كائن حى، كما توجد فى النبات، وهى معان جامعة لصفات القصد والغاية التى ينتفى معها القول بالمصادفة والقول بالعبثية، وجامعة لصفات العلم والحكمة التى ينتفى معها الجهل واللهو والعبث، وجامعة لصفات الإرادة والقدرة التى ينتفى معها العجز.

وكلها فى النهاية تؤدى إلى العناية بالمخلوق ورعايته، وينبغى استجلاء هذه المعانى من القرآن الكريم والتنبيه إليها والاهتمام بها وتربية النشء عليها وامتلاء قلوبهم بالإيمان بها، والاعتقاد فيها لأنها قطب الرحى فى تثبيت قضية الإيمان فى القلوب، إن مناهج الدراسة فى المؤسسات التعليمية ينبغى أن تجعل من هذه القضية محوراً أساسياً تربى عليها الشباب حتى ينشأ المرء عارفا بربه من خلال تعرفه على دقائق صنعته فى كل جزئيات هذا الكون، فيتعرف الطبيب والمهندس وعالم النبات والفلكى وعالم الحشرات، كل فيما يخصه على دقائق الصنعة التى هو بصددها ويستخرج ما فيها من

---

(١) راجع أصول أهل السنة والجماعة ص٣٥-٣٨، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧.

دلائل القدرة والعلم والحكمة والقصد والغاية ليزداد ايماناً على إيمانه إن كان مؤمناً، وليعلم أن هذه المعانى لا يمكن أن تقع مصادفة وبلا قصد ولا غاية من الفاعل الخالق فيؤمن أن وراءها خالقاً قادراً وليعلم أنها ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

إن محاربة الإلحاد لا يكفى فيها الوعظ والإرشاد واستعمال العبارات المسيلة للدموع، وإنما ينبغى أن يعيش المسلم لغة عصره وثقافته، فيتخذ من العلم سلاحاً يتزود به فى مواجهة الإلحاد المتفشى فى بؤر كثيرة ومستنقعات عفنة لا سبيل إلى تطهيرها من هذا المرض إلا بسلاح العلم ولغته، والسبيل إلى هذا هو أن تشتمل مناهج الدراسة فى مؤسساتنا على هذا الزاد العلمى وأن يدرس الطلاب هذه العلوم بروح قرآنية تربط بين موضوعات هذه العلوم والغاية منها، وإنها لم تخلق عبثاً وأن تربط بينها وبين خالقها من جانب آخر، حتى لا يقع الشباب فى أودية الضلال.

وكذلك فمن الضرورى أن يقف الشباب على أن هذه المفردات الكونية تحمل معها آثار صفات خالقها فيتحول الكون كله أمام العالم والمتعلم إلى مرآة يقرأون على صفحتها دلائل قدرة الخالق وعلمه وحكمته وإرادته بالإضافة إلى كون ذلك كله آية دالة على الخالق سبحانه، وليس من الحكمة ولا من الصواب منهجياً أن يدرس الطلاب هذه العلوم بروح إلحادية تقطع صلة الكون بخالقه وتقف بالطلاب عند مجرد اكتشاف الأسباب المادية دون أن يصلوا هذه

الأسباب بالمسبب الأول وهو الله، ودون أن يشرحوا للطلاب أن هذه الأسباب ليست فاعلة ولا مؤثرة بذاتها وإنما هى فاعلة بفعل الله فيها، فهو الذى أودع فيها خاصية التأثير فكانت مؤثرة، وهو الذى جعل المسببات قابلة للأثر فكانت منفعلة بأسبابها، أما أن تدرس هذه العلوم الكونية بمعزل عن روح القرآن فإن ذلك عين العبث بعقول الأمة وضياع للناشئة فى متاهات الحيرة وأودية الشكوك والشبهات، إن المنهج الذى تدرس به هذه العلوم الكونية فى مؤسساتنا منهج غربى نشأ وتأسس على مبدأ قطع الصلة بين الكون وخالقه، وأن هذا الكون المادى ليس وراءه خالق نبحث عنه أو نؤمن به، وأن محاولة البحث عن الخالق أو مجرد الحديث عنه لون من ألوان الخرافة والجهل، وليس وراء المادة والعلم ما ينبغى أن نتعلق به أو نشغل أنفسنا به، على هذا النحو من بتر الصلة بين الكون والخالق، تأسس المنهج الغربى فى دراسة الكون وعلومه، فلماذا الحرص على الأخذ بهذا المنهج فى بلادنا.

ولماذا الحرص على أن نربى عليه أبناءنا، ولماذا الإصرار على الالتزام بهذا المنهج الذى يزرع الشكوك ويثير الشبهات أمام الناشئة .

أليس من الحكمة أن نربى أبناءنا بمنهج نربط به بين الكون وخالقه لنحقق خلاله هذه الوظائف التى نبهنا إليها القرآن الكريم.

الوظيفة الثالثة : دلالته على عالم الغيب :

إن وجود هذا الكون شاهد على عالم الغيب ودليل عليه، هو دليل على النشأة الآخرة، ذلك أن هذا العالم الحسى قد ثبت وجوده بحكم الواقع والمشاهد، ولا شك فى أن الواقع دليل عملى أكثر يقيناً من الدليل النظرى بحكم التجربة والمشاهدة، ولا شك أن هذا العالم لم يخلق نفسه، ولم يوجد من غير خالق، والذى أوجده أول مرة يكون قادرا على إعادة خلقه مرة ثانية، وإذا أخبرنا القرآن أن الله سوف يعيد الخلق مرة ثانية، فإنه بذلك يكون صادقاً، وليس فى منطق العقل دليل على امتناع ذلك بل إن العقل يقبل ذلك ويؤيده من خلال مشاهدته لهذا العالم الحسى، ومن خلال المشاهدات اليومية لأفعال البشر - ولله المثل الأعلى - فإنك إذا رأيت إنساناً يحمل أثقالاً، مائة كيلو جرام مثلاً. ثم جاء من يحدثك أنه رأى نفس الشخص يحمل ٥٠ كيلو جرامًا فإن العقل يكون أكثر أمانا لقبول هذا الخبر وتصديقه، لأن مشاهدتك له وهو يحمل مائة كيلو خير دليل على صدق من حدثك بأنه يحمل ٥٠ كيلو أقل مما رأيته أنت بنفسك، وهذا يعنى أن عوامل صدق الخبر أكثر.

ولو جاء من حدثك أنه رأى الشخص يحمل مائتين أو ثلاث مائة، ربما توقفت فى قبول الخبر وتصديقه، وربما خالجك نوع من الريب فى ذلك، ولكن لما رأيته يحمل مائة كيلو وجاء من حدثك بأنه يحمل أقل مما رأيته كان الخبر أولى بالقبول والصدق من باب أولى.

والله تعالى قد خلق هذا العالم أول مرة من العدم، وأخبرنا فى كتابه الكريم أن هذه الحياة الدنيا ليست غاية فى ذاتها، وإنما هى مزرعة الآخرة. حيث تجزى فيها كل نفس بما كسبت، يُقتص فيها من الظالم للمظلوم تحقيقاً لمعنى العدل الإلهى كما قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥] والعقل يجد قبولاً لأخبار القرآن عن اليوم الآخر وتصديقا له وذلك من خلال مشاهدته لهذا العالم، وإيمانه بأن الذى خلق أول مرة يكون قادراً على إعادة الخلق مرة ثانية.

ومعلوم أن الخلق الأول كان من العدم، والخلق الثانى لا يكون من العدم وإنما يكون من وجود، ذلك أن الإنسان إذا مات تحلل جسده وعاد إلى أصله الترابى، فالجسد الإنسانى ليس غريباً على التراب وإنما هو منه وإليه كما قال سبحانه : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، ولما كان الخلق أول مرة من العدم كان أكثر صعوبة فى منطق العقل من الخلق الثانى، وبالتالى يكون الخلق الثانى أهون وأيسر من باب أولى. فالذى يخلق من عدم أولى به أن يكون قادرا على الخلق من الوجود، والأمر فى ذلك يشبه تماماً المثال الذى سقناه لتوضيح الموقف من عالم الشهادة.

وهذا ما نبه إليه القرآن الكريم فى أكثر من آية حيث نبهنا إلى أن الخلق الثانى أهون على الله من الخلق الأول، لأن بدء الخلق كان

من العدم وإعادة خلقه يكون من وجود، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم : ٢٧].

وهذا ما يسمى بلغة المنطق بقياس الأولى وقد أشرنا إليه تفصيلاً فى دراسات لنا سابقة، وهو يعنى ثبوت الحكم لشىء بناء على ثبوته لما هو أولى بالثبوت منه، وقد أشرنا إلى المثال التوضيحى له من قبل، وهو قياس برهانى عقلاً ونقلاً أشار إليه القرآن فى كثير من آياته، قال تعالى مستدلاً على البعث: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ، أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس ٧٨: ٨١].

تأمل معى هذه الآية الكريمة تجدها تنطلق من عالم الشهادة باعتباره واقعاً محسوساً لا يمكن إنكاره، وتستدل به على الخلق الثانى. وقد تضمنت الآية عدداً من الأدلة تعتمد كلها على عالم الشهادة كركيزة أساسية للاستدلال على البعث.

الدليل الأول : ﴿ضَرَبَ لَنَا مَثَلا، وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ وسبب نزول الآية أن أحد المشركين قد أنكر البعث وقال للرسول وقد أمسك قطعة

عظم "رميماً" بيديه يا محمد أترى أن الله يبعث هذه العظم بعدما أصبحت رميماً. فقال له الرسول نعم. يبعثها ويبعثك ويدخلك النار. ونزلت الآية لتقول له كيف تضرب لله الأمثال بهذه القطعة وتنسى أنك كنت عدماً فأصبحت موجوداً، أليس الذى أوجدك من العدم أول مرة قادرًا على إعادتك مرة ثانية.. ألا تكون الإعادة أهون من الخلق الأول...؟

الدليل الثانى: ثم جاءت الآية الثانية بدليل أكثر عموماً فقال للرسول: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ليفهم المخاطب أن الذى تكفل بالخلق الأول من العدم قادر على الخلق الثانى من وجود.

الدليل الثالث : ثم ساقت الآية دليلاً علمياً يحتاج إلى مستوى أرقى من التعقل فقال سبحانه وتعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ ومن المعلوم أن من خصائص الشجر الأخضر أنه رطب بارد، وأن من خصائص النار أنها حارة يابسة، وخصائص الخضرة على النقيض من خصائص النار، وفى لغة العقل أن الجمع بين النقيضين محال، والآية تنبهنا إلى أن الله تعالى قد خلق النار من الشجر الأخضر، اى خلقها من نقيضها. وإذا كان الله قد خلق النار من نقيضها فإنه يكون قادراً على إعادة خلق الشيء من أصله. بل إن ذلك أولى فى القبول وأدعي للصدق.. وهذه الأدلة كلها تنطلق من عالم الشهادة وتتخذ منه أساساً ومرتكزاً لإثبات عالم الغيب، ولست هنا فى مقام الاستدلال على البعث أو الاستدلال

على عالم الغيب وإنما قصدنا الأول التنبيه إلى إحدى وظائف عالم الشهادة التى غاب عنها البعض وراح يتحدث عن عالم الغيب بأنه حديث خرافة وأن المؤمنين به رافضون لمنطق العقل ويقودون القافلة إلى الوراء ..... و..... و.... الخ ما يثيره دعاة التنوير الغربى فى مجتمعنا .. ولو أداروا بعقولهم فيما حولهم وتأملوا الموقف بعين الإنصاف لعلموا أن حديثهم فى ذلك عين الخرافة والجهل.

الوظيفة الرابعة : الكون مسخر للإنسان :

إن هذا الكون بعالميه السفلى والعلوى مسخر لخدمة الإنسان وتحقيق مصالحه، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٣، ٣٤]. ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ [النحل: ١٤].

وقانون التسخير هذا عام وشامل لكل ما فى السموات والأرض براً وبحراً وجواً، فالكل مسخر للإنسان، فكما جعل الشمس والقمر والليل والنهار مسخرات بإذنة سبحانه، أرسل الرياح مبشرات، وأرسل الرياح لواقح، فأنزلنا من السماء ماء. وجعلها حاملة للماء لتنقله إلى الأرض الجرز لتخرج به الزرع مختلفاً ألوانه ومظاهر الستخير واضحة فى كل جزئيات الكون لا تحتاج إلى بيان

وكان من رحمة الله بالإنسان أن جعل الكون قابلاً لفعل الإنسان ومنفعلاً بإرادته منه، قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

قال تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ .

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[النحل:٥-١٣].

والانتفاع بهذا الكون ليس خاصاً بالمؤمن دون الكافر وإنما هو نفع عام لكل بنى البشر المؤمن والكافر على سواء ولذلك تجد خطاب القرآن الكريم فى الآيات موجهاً إلى الناس عامة بلفظ ﴿لَكُمْ﴾، ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾، ﴿سَخَّرَ لَكُمْ﴾ وصيغة الخطاب هذه

﴿لَكُمْ﴾ تدل على أن التسخير مقصود وهو إحدى وظائف الكون المطلوبة، والتى ينبغى أن يتنافس حول تحقيقها المتنافسون لارتباط هذه الوظيفة بالوظيفتين السابقتين ارتباطاً وثيقاً، فهى بمثابة المقدمة لهما، ذلك أن تسخير الكون للإنسان لن يتم إلا إذا استطاع الإنسان أن يعمل عقله فى أشياء الكون من سمائه إلى أرضه كاشفاً عن قوانينه، باحثاً فى ظواهره بقصد الوصول إلى معرفة العلاقات المتبادلة بين هذه الظواهر وجوداً وعدماً، وهذا كله هو مفتاح الطريق إلى معرفة آثار الله فى كونه، ومعرفة آثار صفاته وبالتالى فإن ذلك كله يقود العالم المتأمل إلى الإيمان بأن هذا الكون بما فيه من براهين بينات تبهر العقول آية من آيات خالقه سبحانه.

ولذلك فقد نبه القرآن الكريم فى العديد من آياته أن هذه الآيات الكونية المسخرة لخدمة الإنسان، يجد الإنسان فيها خلال انتفاعه بها وتسخيره لها كثيرا من الآيات الناطقة بصفات خالقها الدالة عليه، وينبغى على الإنسان أن يتنبه لها لأنها ليست بعيدة عنه، بل إنها حوله مصاحبة له فى غدوه ورواحه، وفى صباحه ومسائه، وفى نومه ويقظته.

فمن أراد الانتفاع بالماء فعليه التعرف على قوانينه، متى يتحول إلى جماد، ومتى يتحول إلى بحار، ومتى يستخدمه لتوليد الطاقة.

ومـــن أراد أن ينتفع بالرياح أو الهواء، فعليه أن يتعرف على قوانينها ومتى يستطيع تسخيرها والإفادة منها.

ومـــن أراد الانـــتفاع بـــالأرض وتربتها فعليه التعرف على خصائص التربة ومتى تكون صالحة للإنبات ومتى لا تكون.

وكذلـــك عـــالم الأفلاك، وعالم الطب، عالم الحشرات... الخ، والتسخير لا يتم إلا بمعرفة هذه القوانين وإعمالها، وهذا هو مضمار الســـبق الحضـــارى بين الأمم، وميدان السبق والتنافس بين الشعوب وهـــذه القوانيـــن التى يتم بها تسخير العالم لا تتأبى على من تعرف عليها مؤمنا كان أو كافراً، لأن ذلك مما أودعه الله فى الكون وجعله ذلـــولاً لمـــن توصل إلى اكتشافه وتعرف عليه . ويستطيع بذلك أن يخضـــع الكون كله لصالحه فيفيد منه وينتفع بخبراته وينافس غيره من أمم الأرض.

◈ **حول قانون السببية :**

وهـــنا نقطـــة على جانب كبير من الأهمية نود الإشارة إليها، ذلك أنه ينبغى ألا يظن المرء أنه حين يكتشف القوانين ويتوصل إلى معرفة العلاقة بين ظواهر الكون أنه بذلك قد استقل بهذا الكون أو أن هـــذه القوانين التى اكتشفها تكفى وحدها فى الاستقلال بالفعل فى هذا الكـــون أو أنهـــا تعمل أثرها منعزلة عن خالق الكون. لا.. إن هناك بُعـــداً آخر على درجة كبيرة من الأهمية ينبغى ملاحظته، فقد نعرف

القـــانون ونكتشـــف السبب المؤثر الفاعل، ثم نحاول أن نضعه حيث يؤثـــر فى محلـــه القابل للأثر. فنجد أن هذا المحل معطل غير قابل للأثر فلا ينفعل ولا يتأثر، وبالتالى لا يؤثر القانون ويتعطل الأثر وقد يكـــون له أيضـــاً ضد يمانعه، ذلك أن كل سبب ليس مستقلاً بالتأثير مـــنفرداً به، بل لابد له من أسباب تعاونه، فإذا لم تتم معاونة الأسباب الأخـــرى المشـــاركة وتنـــتفى الأضداد والعوائق المانعة لم يحصل المســـبب، فالمطر وحده لا ينبت النبات بل لابد أن تنضم إليه عوامل أخرى لا تقل فى تأثيرها عن المطر، فلابد من اعتدال الهواء، وكون التربة صالحة للإنبات فإذا نزل المطر وبذر النبات فى أرض جدباءا أو فى صـــخر فمـــن العبث أن ننتظر إنبات الزرع، لأن التأثير هنا منتف لانتقاء المحل القابل للأثر، والزرع لا ينمو ولا يؤتى ثماره إلا بـــتعهد صـــاحبه له وصرف الآفات المضرة عنه والطعام لا يغذى الإنســـان مـــنفردا بـــل لابـــد من قابلية الجسم لنوع الطعام وسلامة الأعضـــاء والقـــوى المنبثة فى الجوارح وكل ذلك لا يفيد شيئاً ما لم يكن الجسم قد صرفت عنه الآفات والعوائق. فلابد من انتفاء الموانع ووجـــود الأسباب المعاونة، وكل سبب معين أو شرط مطلوب تحققه فى حدوث الأثر يعتبر جزءاً من السبب العام للفعل ويكون مؤثراً فى أحـــداث المســـبب بقـــدر الحاجة إلى تحصيله ومعاونته، وليس فى الوجـــود سبب تام مقتض للفعل بذاته مستقل عن الأسباب المعاونة، وإذا كـــان بعض الباحثين يسمى الأسباب المساعدة شروطاً والبعض

يسميها مقتضيات فإن هذا نزاع لفظى لا يلتفت إليه هنا لأن المقصود هـنا هو بيان أن المسبب لا يحصل إلا بتوفر هذه العوامل المساعدة لسـببه ولا مشـاحة فى تسميتها سبباً أو شرطاً، وينبغى ألاّ يصرف نظرنا هذا الخلاف اللفظى عن دور هذه الأسباب المساعدة فى التأثير فى الفعـل وتوقف الفعل عليها. وحينئذ فلابد فى كل سبب مؤثر من توفر ثلاثة أمور :

١- وجود المقتضى التام للفعل.

٢- توفر الأسباب المساعدة أو الشروط الخارجية.

٣- انتفاء المانع العائق.

فـإذا تحققـت هذه الشروط الثلاثة فى السبب فلابد أن يوجد المسبب، أما أن يكون فى الوجود علة تامة تستلزم معلولها، أو يكون فى الوجود سبب تام مستقل بالتأثير فهذا قول باطل يكذبه الواقع، ولا فرق فى ذلك بين الأسباب الطبيعية فى الكون والأسباب الإنسانية فى حـركة المجتمع فقد يكون هناك عائق أقوى من السبب فيمنعه عن الـتأثير، وهـذا مـا عبر عنه القدماء فى قولهم إن السبب لا يستقل بالـتأثير "بل لابد من ارتفاع الموانع التى قد تعوق السبب عن التأثير فى المسبب، وهذه الموانع منها ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه وهى كلها بيـد الله سبحانه وتعالى فهو سبحانه المسبب الأول، فهو الذى يجعل السبب مؤثراً وفى نفس الوقت يجعل المحل غير قابل للأثر فلا ينفعل

بالسبب ولا يتأثر به. وهذه قضية ينبغى أن يتنبه لها المرء حتى لا يصاب بالغرور العقلى وحتى لا يقطع الصلة بين الكون وخالقه أو يفصل بين الأسباب ومسبب الأسباب فهو وحده سبحانه له الخلق وله الأمر، فعلى المرء أن يبحث ويكتشف ويعمل عقله وفى نفس الوقت يكون قلبه معلقاً بالخالق والمسبب يستمد منه العون والتوفيق ولقد لفت القرآن نظرنا لذلك قال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة : ٥٨، ٧٣].

هذه الإشارات القرآنية توجه نظرنا إلى ضرورة ربط الكون بخالقه بدءً ونهاية لنعلم أن الذى خلق هو الذى يحفظ على الكون نظامه، وهو الذى ﴿يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر : ٤١].

وحين نحاول دراسة الكون وقوانين تسخيره بعيداً أو منفصلاً عن خالقه فإننا بذلك نكون قد أبطلنا الوظيفتين السابقتين للكون، كونه ايـــة دالـــة عـــلى خالقه وكونه مرآة لصفات الخالق، وحينئذ لا يجد الـــباحث أمامه إلا القول بالعبثية المطلقة أو الصدفة العشواء وتنتفى الغائية والحكمة وهذا ما فعله الماديون فى بحوثهم الكونية، لقد بتروا الصـــلة تمامـــاً بين الكون وخالقه ، وأصبح العالم عندهم مادة فاعلة ومادة منفعلة وليس وراء ذلك فاعل حكيم ولا غاية مقصودة.

إن تحقيـــق الوظائف الكونية السابقة هدف أساسى من أهداف المعـــرفة بالكون، وغاية مقصودة للشارع، أمر بها القرآن وكلف بها الإنســـان، فلابد أن يكون الكون موظفاً بواسطة الإنسان لتحقيق هذه الأهداف الكبرى :

١- إنه آية دالة على الخالق.

٢- إنـــه مـــرآة تـــنعكس على صفحتها صفات الخالق وآثار صفاته.

٣- إنه دليل على عالم الغيب.

٤- إنه مسخر لخدمة الإنسان.

وهـــذه الوظـــائف الكـــبرى لا تـــتحقق واحدة منها إلا بالعلم وبمجهود العلماء.

(٧)

الوحى والواقع

إن بحث العلاقة بين الوحى والواقع هو أحد موضوعات الساعة، ولقد شغل بعض الدارسين أنفسهم ببحث هذه القضية وطرحها على الشباب فى بعض الندوات الفلسفية كواحدة من القضايا التى ينبغى مناقشتها بعقلانية ونظرة نقدية فطرح خلالها مجموعة من الأسئلة التى يرونها ضرورية للتخلص من قيود النص وعوائق الماضى، فلماذا الالتفات إلى الوراء والتمسك بالنصوص التى نزلت قبل أربعة عشر قرناً لتعالج مشكلات قد مضى وقتها ولم يعد لها مبرر فى هذا العصر.

ولماذا لا نطوع الوحى ونصوصه لظروف العصر ومقتضياته كما فعل الغرب مع كتبهم المقدسة؟ وينبغى ألا يظل الواقع وهو متحرك أسيراً للنصوص المقدسة وهى ثابتة.

إنهم يجعلون الغرب قبلتهم فى الأخذ عنه وهو المثال والنموذج الذى ينبغى الاقتداء به فى شئون الحياة، وأن الغرب قد تجاوز النص الدينى وأخضعه للواقع ولم يعد للنص الدينى علاقة

بحـــياتهم اليومية ولم يمثل قيداً ولا عائقاً فى مسيرتهم العلمية ولذلك أبدعوا واخترعوا فلماذا لا نفعل كما فعل الغرب.

ويحـــاول بعضهم أن يجدد مسائل دينية معينة ليقول إن الزمن قـــد تجاوزهـــا وينبغى أن نتخلص من قيود النصوص التى تحكمها وتحكم مسيرتنا معها، فيقول إذا كان الأقدمون قد مضوا على تقديس الله وعـــبادته فلمـــاذا نتوقف نحن عندما وقف عنده الأقدمون ونصر علـــى تقديـــس الله وعبادته. وقد تجاوز العلم هذه القضية فلم يعد فى مـــنطق العلم متسعاً لفكرة الله، لماذا لا نقدس الإنسان بدلاً من تقديس الله..؟

ولمـــاذا لا نؤلـــــه الطبيعة وقوانينها بدلاً من تأليه إله غائب، ولماذا لا نشغل أنفسنا بالطبيعة بدلاً من الانشغال بهذه الغيبيات.

لمـــاذا لا نقلد علماء الغرب فى تأنيس الإله أو تأليه الإنسان.. وإذا كان هذا هو موقف بعضهم من قضية الألوهية، فإن بعضاً منهم نـــادى ويـــنادى بتغيير أحكام الميراث التى أنزل بها الوحى خاصة ميراث المرأة التى نزل الوحى ليجعل نصيبها نصف نصيب الرجل، ويـــرون أن فى ذلك إجحافاً بحقوق المرأة، فلماذا تأخذ المرأة نصف الـــرجل؟ ولمـــاذا لا يكـــون نصيبها مثل نصيب الرجل سواء بسواء ويـــرى هؤلاء أن تطور حركة التاريخ تفرض علينا ضرورة إعادة الـــنظر فى هذه الأحكام ولا يتقيد بها حتى لا تكون عائقاً يقيد حركة التطور الاجتماعى والاقتصادى. هكذا يقولون.

وهذا ما سمعته من رؤوسهم فى أكثر من مناسبة، وكنت أسمع ذلــك كله نقلاً عنهم ولا أجد عندى مبرراً لتصديق هذه السخافات أو قــبولها عنهم فهم مسلمون، هكذا يقولون ويتسمون بأسماء المسلمين. وهكــذا نعرفهم ولكن لما جلسنا معهم فى الندوات واستمعنا إليهم فى المؤتمــرات تأكدنا من صحة ما سمعنا عنهم ولم نسجل هذا كتابة إلا بعد أن سمعته بنفسى مشافهة منهم فى أكثر من مناسبة، وسمعنا غير ذلــك منهم مما هو موجود فى كتبهم، فالله عند بعضهم فكرة وهمية اخــترعها الإنســان، والــوحى ينبغى أن يخضع للواقع ويتطور مع حركة التاريخ.

وعــند بعضهم الآخر ينبغى أن لا نتقيد بأحكام المواريث بعد أن تجاوزهــا الواقــع الاجــتماعى وأصبحت المرأة كياناً اجتماعياً مستقلاً.

ولقد تأثر بهذه الآراء مجموعة من شباب الباحثين الذين غرهم بــريق هذه الأسماء فى الندوات الثقافية والمحافل الإعلامية وأخذوا يــرددون هذه الآراء دون فهم لأبعادها، ودون مناقشة لمصادر هذه الآراء ولا معــرفة بها، وإنما من منطلق حسن الظن بأصحابها تقليداً لهــم، وقد يلتمس لهذا الشباب نوعاً من العذر فلقد تربوا على موائد عــلمية اقتصر زادها العلمى على نوع معين من المناهج والمؤلفات التى تربى فى النفس الزهد فى كل ما هو دينى والنفور منه، وتعمل

علـى إيجاد حاجز نفسى بين الشباب والإسلام، فى ثوب من الألفاظ والمصطلحات المستوردة من كتابات المستشرقين عن الإسلام، فالوحى عندهم قيد على حركة العقل، يعوق التفكير الحر، قيد على حركة التاريخ وهو رمز للتخلف والرجعية، فإما العلم والتقدم والمعاصرة أو الحداثة وإما التمسك بالوحى والتقيد بأحكام النص لأن ارتباط الإنسان بالله يصرفه عن الارتباط بالطبيعة واهتمامه بالتمسك بأحكام الوحى يصرفه عن التمسك بأحكام العقل. ومماطم الوادى فى عصرنا أن بعض العناصر النسائية قد انضمت إلى ثلة المعارضين للوحى تقربا وزلفى إلى سيدات مصر الأوليات انتصارا لهذا التوجه الثقافى، ولقد انتهزت بعض السيدات الفرصة واتخذت من موقعها الوظيفى مصدراً لقوة رأيها ففتحت أمامها أبواب الصحف والمجلات الموصدة فى وجه الآخرين وأخذت المقالات اليومية والأسبوعية تصافح القراء بهذه الآراء مغلفة بألفاظ معسولة مثل التقدمية العقلانية الحداثة، التطور، محاربة التخلف والرجعية.

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر : ٨].

وكما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف : ١٠٤].

إن مــن يــتابع الحــركة الثقافية المعاصرة يجد أصحاب هذه الآراء أحد نمطين:

الأول : نمط مستغرب بفكره وثقافته وولائه بهره تقدم الغرب عــلمياً وتكــنولوجيا، بهره كثرة الاختراعات والكشوف العلمية التى يعيــش فى ظلالها الغرب وهى لا شك كثيرة، فى نفس الوقت شغله التخــلف الذى يعيشه العالم الإسلامى، التخلف السياسى والاقتصادى والعلمى، وهو واقع لا سبيل لانكاره وأخذ يتلمس الأسباب لهذا الواقع المتخــلف فكــانت الإجابة عنده هى ما رآه المستشرقون، من أسباب لتخــلف العــالم الإسلامى. إنه الإسلام ولا شىء غيره، إنه التمسك بــالوحى ونصوصــه، وهــذا النمط من المثقفين لم نجد عندهم ولاء لديــنهم حــتى يدافعوا عنه ضد هجمات المسشرقين ولم نجد عندهم معرفة بدينهم ولا استعدادا لأن يعرفوا شيئا عنه وأغلقوا عقولهم على مقــالات المستشرقين عن الإسلام وأصبحت هذه الآراء عندهم أشبه بالمســلمات الــتى لا تناقش، وهذا التيار قد بدأ فى بلادنا من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وما زال مستمراً بداءًا من كــتابات ســلامة موسى حيث كتب "ما هى النهضة" ودعا فيها إلى التخــلص مــن الغيبيات ابتداء من الإيمان بوجود الله وانتهاء باليوم الآخر. وما زال التيار مستمراً.

وساعد على نمو هذا التيار عند بعض الشباب هذا الفراغ الديني الذى يعيشونه، والأمية الدينية التى تتمثل فى جهلهم بالإسلام واحتضانه للعلم وتكريمه للعلماء، ونحن هنا لا نشكك فى نوايا أحد فذلك أمر موكول إلى الله. ولكن الذى نؤكد عليه هو فراغ هذا النمط من المعرفة الكاملة بالإسلام، وجهلهم بالمنهج القرآنى فى تحصيل المعرفة وأهدافها وغاياتها، ولو أنهم صرفوا بعض وقتهم وجهدهم فى التعامل مع القرآن ونصوصه بقلب مفتوح وعقل خال من الشكوك والأوهام ليقفوا على أهمية العلم فى حياة المسلم لكان لهم موقف يختلف عن ذلك، بل ربما عادوا باللائمة على أنفسهم إن كانوا منصفين حيث ضيعوا أعمارهم وجهدهم فى معارضة الوحى وهم يجهلون مقاصده وأهدافه، فضلاً عن جهلهم بنصوصه وهذا ما صرح به بعضهم فى آخر حياته وكتب يعترف نادماً على ما ضاع من عمره وهو يجهل هذه الحقائق الدينية التى نزل بها الوحى.

أما النمط الثانى :

فلم يؤت حظا لا من المعرفة بالإسلام ولا من العلم، ولكن هيأت له الظروف الاجتماعية موقعاً إعلامياً اتخذه منبرًا ينفث خلاله سمومه على المجتمع، ولا شك أن لأجهزة الإعلام دورها المؤثر فى تهيئة العقول لتقبل الأفكار والتأثر بها فى الحياة الاجتماعية، وتزداد خطورة هذا النمط فى التأثير على المجتمع وتقبله لهذه الآراء حين يكون المجتمع أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فضلاً عن أميته الثقافية وفضلاً

عن أميته الدينية، وقد يحسن الظن بمن يخاطبه إعلامياً فيقع حديثه من النفس موقع القبول والرضى ولقد شاهدنا وسمعنا خلال أجهزة الإعلام المرئية من يخاطب المجتمع قائلاً. إن حجاب المرأة رمز للتخلف ودليل على التأخر، وشاهدنا وسمعنا من يقول إن عدم مساواة المرأة بالرجل فى الميراث ظلم يجب التخلص منه.

ومما يدعو إلى الأسى حقاً أن أصحاب هذه الآراء يظهرون فى التلفاز على أنهم رواد حركة التنوير وحملة المشاعل ورموز التقدم :

ألقـاب ممـلكة فـى غـير موضـعها كالهـر يحكى انتفاخا صولة الأسد

إن القضية جد خطيرة، وتنذر سحائبها بما هو أخطر خاصة فى هذه المرحلة التاريخية التى يعيش فيها المسلمون حالة الضعف والهزيمة النفسية التى تتمثل فى التبعية المطلقة للغرب، والتنادى بها والتنافس المحموم فى السعى إليها.

إن طرح هذه القضية للمناقشة علاقة الوحى بالواقع وافد إلينا من الغرب ضمن الأفكار الوافدة مع عقلية المستغربين الذين يحاولون جذب الواقع الإسلامى إلى الغرب فكراً وثقافة، إن القضية لا تنفصل – فى أصلها عن قصة الصراع بين الكنيسة والعلم فى أوربا، إنها إفراز طبيعى لهذه المعركة، لقد أثارت الكنيسة كثيراً من الغبار ضد الوحى، وضد مصدره، وضد عصمته، بل ضد الدين بصفة عامة

حين ربطت هرطقتها وآراءها بالوحى، وحين ادعت أن ما يقول به العلماء يناقض الوحى ويعارضه.

ولقد انتقل هذا الموقف بكامل حيثياته وملابساته إلى العالم الإسلامى، وتبنى العلمانيون العرب فى مصر وفى غيرها الدعوة إلى أحد أمرين :

١- إما التخلص من الوحى كلية وبدعوى أنه يمثل قيداً على حركة العقل ويعوق حركة التقدم والتطور فلابد من الانتقال من العقيدة إلى الثورة عليها طلباً للتغيير.

٢- وإما إخضاع الوحى للواقع، ويفسر نصوص الوحى فى ضوء واقعنا نحن، وفى ضوء ظروفنا نحن بدلاً من أن نخضع واقعنا وظروفنا للنصوص.

هكذا يعلنون صراحة وفى جرأة لا تنقصها العزيمة ولم يدر بخلدهم أن يعرفوا الفرق بين الإسلام والكنيسة، أو يتساءلوا عن مصدر الوحى فى الكنيسة وعن مصدر الوحى فى الإسلام، إن الوحى فى الإسلام ليس من عند محمد (ﷺ) ولا من إنشائه، وأن الوحى فى الإسلام قد انقطع بموت محمد (ﷺ) وعلى إخوته من النبيين والمرسلين، ولم يدع أحد فى الإسلام أنه ينزل عليه الوحى أو أن كلامه معصوم من الخطأ حتى يطلب من الجميع الإيمان به. إن ذلك كله لا مكان له فى الإسلام، وهو نفسه مصدر الخلاف بين العلماء والكنيسة فى أوربا.

ففى العصور الوسطى سيطرت على رجال الكنيسة فكرة تتابع الوحى، وأن آراءهم التى يطلعون بها على الناس إنما هى وحى يجب اتباعه، ولذلك، سادت فكرة ارتباط الوحى بالواقع يتطور معه ويتغير حسب ظروف الواقع - فما كان محرما بالأمس لا مانع أن يصبح اليوم حلالا إن لم يكن واجباً، وما كان مرفوضاً بالأمس لا مانع أن يصبح اليوم مقبولاً.

والذين يريدون نقل هذه القضية إلى العالم الإسلامى والترويج لها فى بلادنا ينبغى عليهم أن يكونوا أمناء فى توضيح الظروف التاريخية والثقافية التى أفرزت هذه القضية فى أوربا وأن يشرحوا أبعادها الاجتماعية وعليهم أن يكونوا أمناء فى شرح الفروق الجوهرية بين الإسلام والكنيسة وعليهم أن يكونوا أمناء فى ضرورة التفرقة بين الإسلام ومبادئه وأصوله وواقع المسلمين المتردى والمتخلف ولا يحملوا الإسلام أوزار المسلمين.

وعليهم أن يكونوا أمناء فى إعلان تبعيتهم المطلقة للغرب وأن ما ينادون به من آراء وأفكار ليس لهم فيها إلا مجرد النقل والترجمة من لغات أصحابها وترديدها بين أبناء العربية، فهى ليست اجتهادا لهم حتى ينالوا من أجلها أجر المجتهد المخطئ وأنها تبعية مطلقة وتكرار لآراء سبقهم إليها المستشرقون من قرن مضى.

وقد يحاول بعض هؤلاء أن يربط هذه الأفكار بتفسيرات واهية لا أصل لها ولا سند لا من تاريخ الإسلام ولا من نصوصه،

فيقول إن الوحى كان فى عصر الرسالة تابعاً للواقع يتطور معه ويتغير استجابة للظروف الاجتماعية، وأن أسباب النزول توضح لنا أن الآية كانت تتزل تلبية لحاجات الواقع واستجابة له، وأن الوحى كان يتبع الواقع ولم يكن الواقع تابعاً للوحى.

وهذا الكلام التبريرى لا فائدة فيه، ذلك أن العلم بأسباب النزول يوضح لنا أن القرآن الكريم منه ما كان ينزل لأسباب معينة ومسائل محددة وهذا القدر لا يتجاوز عدد آياته خُمس آيات القرآن الكريم، أما الأعم الأغلب من القرآن الكريم فكان ينزل ابتداء تعليماً وتربية وتوجيهاً وتغييراً للواقع وتطويراً له.

كانت تتزل الآيات إجابة على أسئلة سأل عنها الصحابة فتتزل الآية بالحكم الشرعى، فيستجيب الصحابة ويتبع المسلمون هذا الحكم ليصبح قاعدة شرعية يجب اتباعها كما فى قوله تعالى :

١- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة : ٢٢٢]

٢- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة : ٢١٩].

٣- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة : ٢١٩].

٤- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

٥- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ولو أحصيت الآيات التى نزلت لسبب معين لا تجدها أكثر من خمس آيات القرآن الكريم. ومما ينبغى أن يعرف أن الأحكام الشرعية التى تضمنتها هذه الآيات ونزلت بسببها لم تتغير حسب الظروف ولم يتطور الحكم الذى نزلت به حسب تطور العصور بل كان واقع المسلمين خاضعاً له، فلم تكن الخمر حراماً فى وقت ثم أصبحت حلالا فى وقت آخر، ولم يكن المحيض حراماً فى وقت دون وقت.. الخ، بل كان واقع المسلمين خاضعاً لأحكام هذه الآيات أمس واليوم وسيظل محكوماً به إن شاء الله فكيف يقال إن الوحى كان تابعاً للواقع يتغير بتغير الواقع ويتطور حسب ظروف الناس.

قد يفهم بعض الدارسين أن كل أحكام الشريعة الإسلامية قد طرأ عليها التطور مستدلاً على ذلك بموقف الإمام الشافعى. حيث كان له مذهب يفتى به فى العراق ولما حضر إلى مصر أفتى بمذهب جديد يخالف ما كان يفتى به فى العراق. وهذا ما صرح به بعضهم فى كثير من الندوات كان يدعى فيها إنه "شافعى العصر".

وهنا أمور ينبغى أن نوضحها :

أولاً : ينبغى أن نفرق فى أحكام الشريعة بين الثوابت والمتغيرات، ذلك أن الإسلام يتضمن أحكاماً ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان ولا تخضع لما يسمى بالتطور الاجتماعى وإنما يجب أن تخضع لها الظروف الاجتماعية ولا تخضع هى للظروف الاجتماعية، وهذه الثوابت تنظم حياة الناس فى حياتهم اليومية وفى علاقاتهم الاجتماعية فتكون هذه الثوابت حاكمة لا محكومة، يخضع لها الواقع ولا تخضع هى للواقع لأنها تمثل منهج الحياة للمسلم ثقافياً واجتماعياً، واقتصادياً وسياسياً. وهذه الثوابت مضبوطة بالنصوص القطعية فى ثبوتها والقطعية فى دلالتها، والتى تشمل ركائز الإسلام وأركانه العقائدية كالإيمان بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال سبحانه وتعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة : ١٧٧].

وكما جاء فى الحديث الصحيح. حديث جبريل جاء يسأل، ما الإسلام، ما الإيمان، ما الإحسان. فقال (ﷺ) ، الإيمان أن تؤمن

بالله وملائكته وكتبه ورسله والیوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خیره وشره حلوه ومره.

هذه الركائز الأساسیة التی لا یتم إیمان المرء إلا بها والإذعان لها وثبتت بالنصوص القطعیة فی دلالتها وفی ثبوتها. لا مجال فیها للقول بالتطور أو التغیر بتغیر الأحوال، لأنها قطعیات فی ثبوتها، قطعیات فی دلالتها، والقول بأن الإیمان بواحد منها أو التمسك بنصوصها یعوق عمل العقل ویقید حركة المجتمع فهذا یعنی الدعوة إلی التخلص من الإسلام كلیة بحجة التطور والتقدم، وإذا سمعت من یقول إن الله فكرة وهمیة ینبغی التخلص منها، أو من یقول بتألیه الإنسان بدلاً من تألیة الإله، أو تألیه الطبیعة وقوانینها بدلاً من تألیه الإله الغائب، أو من یقول بتأنیس الله أی یضفی صفات الإله علی الإنسان، فكل ذلك خروج ورفض مطلق للوحی ونصوصه ومحاولة للتخلص منه والدعوة إلی رفضه، ودعك من المماحكات اللفظیة التی یلجأون إلیها تبریراً لرفضهم الوحی كقولهم بالعقلانیة وحریة العقل، والثقافة والتطور ... الخ. فإن ذلك لا یغنی عن الحق شیئاً فهذه أركان العقیدة الثابتة التی لا یكون الإیمان إلا بها، قولاً وعملاً، اعتقادا أو سلوكاً.

ثانیاً : هناك الجانب التشریعی فی الإسلام الذی یتضمن الأحكام الفرعیة التی تنظم حیاة الناس الیومیة فی علاقاتهم الاجتماعیة

وفى أحوالهم السياسية والاقتصادية وهذه الأحكام التشريعية قد تكفلت كتب الفقه الإسلامى بتفصيلاتها وبيان مسائلها، ما يجوز وما لا يجوز فى ضوء الكتاب والسنة، وهذا الجانب الفقهى ينبغى أن نعرف الفروق الدقيقة فى أحكامه بين ما هو قطعى وما هو ظنى، لأن هناك أحكاماً ثبتت بالدلائل القطعية التى لا مجال فيها للاجتهاد. كتحريم الربا، وتحريم الخمر، والزنا، والسرقة، وغير ذلك من الأحكام القطعية التى تتعاون فى مجموعها على تحقيق الأمان النفسى والأمن الاجتماعى للمسلم فى ماله وفى عرضه وفى نفسه، والتى تتحقق بها المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية، فهذه الأحكام القطعية لا مجال فيها للتطور أو التغير أو التبدل حسب تبدل الأحوال لارتباطها بالمقاصد الكلية للشريعة الإسلامية تلك المقاصد التى تمثل قطب الرحى فى كل تشريع سماوى، والتى تمثل هدفاً وغاية لكل دستور وضعى.

وهذه الأحكام القطعية قد تخضع أحياناً لمبدأ فقهى معروف وهو مبدأ الضرورات تبيح المحظورات، لكن خضوعها لهذا المبدأ فى الظروف الاستثنائية لا يلغى أصل الحكم الشرعى، وإنما يمثل حالة استثنائية لضرورة اقتضتها الظروف الطارئة، فإذا زالت هذه الظروف الاستثنائية عاد الوضع إلى الحكم الأصلى وذلك مثل أكل

الميتة فإنه حرام فى أصل وضعه الشرعى لكن الشارع أجازه استثناء عند الضرورة فى قوله تعالى : ﴿إِلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ فإذا زالت الضرورة عاد الوضع إلى أصل الحكم وهو تحريم أكل الميتة. ففى هذه الحالات الاستثنائية لا يقال إن الحكم فيها تغير فى أصل وضعه الشرعى، ولا يقال إن الوحى هنا تابع للواقع يتغير بتغيره، بل الأصل فى ذلك أن الواقع هنا تابع للوحى وأن الوحى هو الذى ينظم الواقع ويضبط أحواله بضوابط الشرع وليست حالات الضرورة هنا تمثل أحكاماً جديدة وإنما هى استثناء من الحكم الأصلى كما سبق ومن هنا فقد وضع علماء الأصول مجموعة من القواعد الكلية التى تضبط هذه الحالات الاستثنائية وتيسر على الناس الأخذ بمبدأ التيسير، فقالوا الضرورات تبيح المحظورات.

وإن الضرورة تقدر بقدرها.

وأنه لا ضرر ولا ضرار.

ما جعل عليكم فى الدين من حرج (قاعدة رفع الحرج).

درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

إن التفرقة بين القطعيات والظنيات فى أحكام الشريعة أمر على جانب كبير من الأهمية حتى لا تختلط المسائل وتضيع ضوابط الأحكام فى غمرة الادعاء والنشوة التى يحسها البعض تحت شعار التطوير والمعاصرة، فلا يجوز لمسلم أن يقول إن الربا كان حراماً

فى وقت البعثة لظروف اقتضتها طبيعة المجتمع الجاهلى، ولكن الآن تغير الوضع وأصبح الاقتصاد العالمى شبكة من العلاقات التى يصعب فصلها فيجب أن نقول بتغير الحكم ليصبح التعامل بالربا حلالا.

كما لا يجوز لمسلم أن يقول إن الخمر ينبغى أن يكون حلالاً تبسيطاً لأسواق السياحة أو أن ما نراه ونشاهده على شواطئ المجون من العراء الفاضح أو القول بالزواج العرفى أو تكوين الأسر غير التقليدية كمعاشرة الرجل للرجل والمرأة للمرأة أو الرجل للأجنبية.. الخ ما نسمع من أفواه دعاة التغريب والتحديث فإن ذلك كله من باب وضع السم فى الدسم ليخاطبوا بذلك غرائز الشباب استغلالاً للظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تمر بها البلاد، وليس ذلك كله إلا محاولة لتطويع المبادئ الإسلامية وتنزيلها على حسب أهوائهم لترضى رغباتهم ونزواتهم ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]. وهؤلاء كما تحدث القرآن عنهم يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً وإن أطعمتموهم إنكم إذا مثلهم إن الله جامع الكافرين والمنافقين فى جهنم جميعاً نسأل الله أن يحمى شباب الأمة من تضليل هؤلاء وخداعهم كما نسأله سبحانه أن ينير بصائرهم ليروا الحق حقاً والباطل باطلاً.

أما ما يدعيه بعضهم من ضرورة تغيير أحكام المواريث لتناسب وضع المرأة فى العصر الحديث فإن الحديث عن خطورة هذه الدعوى أو الحديث عن دلالتها على جهل صاحبها بالإسلام وتكريمه للمرأة قد يخرجنا عن هدفنا فى هذه العجالة لكن هناك أمور ينبغى أن تعرف لبيان تكريم الإسلام للمرأة وتفضيله لها عن وضع المرأة فى أى حضارة أخرى.

إن هؤلاء يجعلون قبلتهم التى يتوجهون إليها هى الغرب تقليداً له فى موقفه من المرأة، وقد غاب عن هؤلاء أن وضع المرأة فى الإسلام يختلف عنه فى الحضارة الغربية اختلافاً جذرياً، فالمرأة فى الإسلام إنسان مكرم كرمه الله فى خلقته وكرمه فى خلقه، كرمها الإسلام بأن جعلها فى مكانة تؤهلها لكن تكون مطلوبة لا طالبة، مرغوب فيها لا مرغوباً عنها، فى كل أحوالها وفى مراحل عمرها المختلفة، فالرجل يشقى لتسعد هى، يكد الرجل سحابة نهاره وسواد ليله ليوفر لها احتياجاتها سواء كانت بنتا أو أختاً أو أما أو زوجة، فالرجل مسئول عن كفالتها فى جميع مراحل عمرها، فهى دائماً مكفولة وليست بكافلة، وهذه مسئولية الرجل أمام أحكام الشرع الإسلامى فهى مسئولية دينية عقائدية كمسئولية الرجل عن نفسه تماماً، وهذا الوضع يختلف عن وضع المرأة فى الحضارة الأوربية التى يراد لنا تقليدها ولا أريد أن أعقد هنا مقارنة بين وضع المرأة فى الإسلام ووضعها فى أوربا فإن ذلك أمر معلوم للخاصة والعامة،

ويكفى أن نعرف أن البنت فى أوربا إذا بلغت سناً معينة من عمرها فإنها تكون مسئولة عن نفسها مسئولية كاملة سلوكياً وأخلاقياً واجتماعياً لتصبح فى سجل الأسرة كائناً مهملاً لا مكانة له، ولم يكن لها فى الوضع الاجتماعى حقوق تعرف إلا فى مطلع هذا القرن، لم يكن لها حقوق لا قبل الزوج ولا قبل الأسرة فكانت كما مهملاً يباع ويشترى فى أسواق النخاسة والرقيق الأبيض، فكان لابد من تشريع قانون يضمن للمرأة حياتها الآدمية، يكفل لها حقوقها قبل زوجها وقبل أسرتها باعتبارها شريكة الرجل فى مؤسسة الحياة الزوجية كما يسمونها وبالتالى كان لابد أن تقاسم إخوتها الأشقاء فى ميراث الأب سواء بسواء، بحيث لا يتميز عنها أخوها لأنه ليس مكلفاً بكفالتها، ولا بالإنفاق عليها كما هو الشأن فى الإسلام، وكذلك الأمر فى داخل الأسرة؛ كان لابد من تشريع يضمن للمرأة حقوقها قبل زوجها فى حال استقرار الحياة الزوجية وفى حال الانفصال، لأنه ليس لديهم شريعة سماوية تنظم هذه العلاقة فى داخل بيت الزوجية وما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات لكل منهما قبل الآخر وعلى سبيل الإجمال فإن الإسلام يختلف عن الحضارة الغربية فى موقفه من المرأة، فقد كفل لها معيشتها الكريمة فى كنف الرجل فى جميع مراحل عمرها، فإذا افتقدت الأب أو الأخ انتقلت كفالتها إلى عمومتها وإلى أبنائهم من بعدهم، وإذا افتقدت عائلها من العصبة فإن بيت مال المسلمين يعول من لا عائل له وعند زواجها يقوم الزوج بالإنفاق عليها إلى حد الكفاية اللائقة بها حسب وضعها الاجتماعى، ولذلك فقد

وضع الإسلام شرط الكفاءة بأن يكون الزوج كفأ لها فى وضعه الاقتصادى والاجتماعى.

وبالإضافة إلى ذلك كله فإن الإسلام قد ضمن للمرأة استقلالها التام فى "ذمتها المالية" فلها أن تتاجر وتكسب وتدخر كما تشاء ولا يجبرها أحد على أن تنفق من مالها لا على بيت الزوجية ولا على غيره إلا برضاها المطلق واختيارها الكامل لأن ذلك لا يجب عليها شرعاً، فأين هذا من وضع المرأة فى حضارة الغرب.

ولكل هذه الاعتبارات فقد راعى نظام توزيع التركة (أحكام الميراث) الإسلامى "أن يكون الغُنْم بالغُرْم"

فإذا كان الرجل كافلاً للمرأة فى جميع أحوالها وفى مراحل عمرها المختلفة فقد راعى الإسلام أن يكون نصيبه فى الإرث ضعف المرأة حتى إذا لجأت إليه يوماً ليكون عائلاً لها عند فقد الزوج أو الأب يكون نصيبها فى الإرث المدخر عنده كفيلاً بحاجتها.

ولو تتبعنا حالات الإرث المشتركة بين الرجل والمرأة فسوف يتبين لنا أن الحالات التى تأخذ فيها المرأة نصف نصيب الرجل قليلة جداً إذا قارناها بالحالات الأخرى، فإن الحالات التى تأخذ فيها المرأة نصف نصيب الرجل أربع حالات فقط من حالات الإرث عند توزيع التركة بينما توجد عشرون حالة أخرى يكون وضع المرأة فيها كالتالى :

١- حالات تتساوى فيها مع الرجل.

٢- حالات تأخذ فيها نصيباً أكثر من نصيب الرجل.

٣- حالات ترث فيها وحدها ولا يرث الرجل.

ونظام الميراث في الإسلام مرتبط بالنظام المتكامل لبناء الأسرة وينبغي أن ننظر إليه من جميع جوانبه ولا نكتفي بالنظرة الجزئية إلى نقطة واحدة ونلغي ما عداها ، فإن عدالة نظام الميراث في الإسلام جعل كثيراً من الأقباط في مصر يلجأون إلى الاحتكام إليه والأخذ به عن طريق دار الإفتاء المصرية لحل المشكلات التي قد تنجم بينهم في توزيع التركات[1].

فإذا طلع علينا من يقول بضرورة تغيير أحكام الميراث لتناسب العصر فنقول له ولماذا لا يتغير وضع العصر ليناسب الإسلام، ولماذا لا يتطور الواقع ليرتبط بالإسلام بدلاً من القول بتطور أحكام الإسلام لتناسب الواقع، ولماذا لا نؤسلم التطور بدلاً من تطور الإسلام، ولماذا نخضع أحكامنا لأوضاع فاسدة بدلاً من تصحيح هذه الأوضاع والعمل على إصلاحها.

---

(١) راجع في هذه لقضية تفصيلا كتاب الإسلام بين الحقيقة والادعاء ص٧١، لمجموعة من العلماء تحرير د/ حامد طاهر.

(٨)

الوحي ضرورة اجتماعية

خلق الله الإنسان وجعله مفطورا على حب الاجتماع، يألف ويؤلف، وتلتقي كلمة الإنسان مع كلمة الأنس في الانشقاق اللغوى تأكيداً لهذا المعنى، فلفظ الأنس والإنسان والائتناس بينها تقارب في المعنى والاشتقاق، ويلتقي معهم الفعل أنس ويأنس ويأتنس ولكنها تدور حول معنى الاجتماع البشرى الذى يتحقق به وفيه كل هذه المعانى الإنسانية، فحب الاجتماع البشرى خاصّية إنسانية ولهذا نجد علماء الاجتماع يعرفون الإنسان بأنه كائن اجتماعى.

ونزلت الأديان السماوية لتثبت بمبادئها هذه المعنى النبيل وتعمل على تنميته وشيوعه بين بنى البشر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفى الآثار النبوية "إن الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف" [رواه مسلم] و"المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف" والرسول (ﷺ) كان حريصاً على أن

يعلم أمته مفاتيح القلوب التى تشيع بها المحبة بين المسلمين وينتشر الود والتراحم فقال (ﷺ) : "ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم. قالوا بلى يا رسول الله قال: أفشوا السلام بينكم[رواه مسلم والترمذى].

والاجتماع البشرى لابد أن ينشأ عنه – ضرورة – اختلاف فى الأهواء والرغبات، وتعارض فى المصالح، والنفوس البشرية بطبعها فيها حب الأثرة، وحب الرياسة، وحب العلو فى الأرض، ومن سنن الله فى كونه أن يوجد فيه الشىء وضده، فيوجد الغنى وبجانبه الفقير، والصحيح وبجانبه المريض والضعيف وبجانبه القوى والعالم والجاهل وغير ذلك من الأضداد التى تقتضيها سنة التدافع البشرى، ولابد أن تنتج هذه المتضادات اختلافاً فى الآراء، والمقاصد والغايات، وتتعدد وجهات النظر وتتصارع الأفكار، كل فريق يبحث عن مصلحته قبل الفريق الآخر، وهذا أمر واقع ومشاهد فى جميع المجتمعات، قد يسميه البعض بصراع الطبقات كما فى بعض المذاهب الاقتصادية كالماركسية مثلاً، فهو واقع يعيشه المرء ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التدافع البشرى باعتباره سنة من سنن الله فى الاجتماع البشرى، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

كما أشار القرآن أيضاً إلى أن هذه السنة ماضية فى الاجتماع البشرى إلى قيام الساعة تقضيها طبيعة العمران والاجتماع البشرى

قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

وهذا التدافع هو أحد مظاهر التجمع البشرى فى كل عصر وفى كل بيئة.

وفى وسط هذا الاجتماع البشرى المزدحم بالمتناقضات، فالمصالح متضاربة والأهواء والرغبات متعارضة، والتفاوت كبير بين مستويات الفقر والغنى والصحة والمرض، والضعف والقوة، ولابد لهذه المتضادات من ضابط يحكم حركتها لتكون فى خير المجتمع كله، فلا تكون لحساب طبقة أو فئة على حساب أخرى، لابد من ضوابط تنتظم بها العلاقات المتبادلة بين هذه المتضادات ولابد أن تكون هذه الضوابط متعالية على الأغراض الشخصية أو الطبقية ليتحقق بها الخير لكل الطبقات، ولتسعد بها كل فئات المجتمع، وليس فى مكنة البشر أن يضعوا هذه الضوابط المتعالية عن كل هذه الشبهات، لأن ذلك ليس من طبائع البشر، ولقد أثبت التاريخ والواقع المعاصر أن كل قانون تضعه طبقة اجتماعية حاكمة فإنه يهدف دائماً إلى تحقيق مصالحها على حساب الطبقات الأخرى وكم شقيت طبقات

فى المجتمعات البشرية لتسعد طبقات أخرى باسم القانون، وكم قضى أناس سواد ليلهم يفترشون الثرى ويلتحفون العرى ليهنأ غيرهم باسم القانون وكم.. وكم عانت المجتمعات البشرية من ويلات القوانين التى يضعها البشر. ولذلك كان لابد لهذه الضوابط التى تحكم حركة المجتمع أن تكون من مصدر فوق مستوى الشبهات، فوق مستوى الأهواء والمصالح الطبقية أو الفئوية وهذا لا يتحقق أبداً إلا إذا كان مصدر هذه الضوابط متعالياً عن أهواء البشر وأغراضهم، وذلك لا يتأتى إلا من الوحى الإلهى، وما سنه للبشرية من تشريعات لتنظيم جلب المصالح ودرء المفاسد للناس جميعاً، فإن مقاصد الشريعة وأهدافها الكبرى تدور كلها حول هذين الغرضين "جلب المصالح ودرء المفاسد، لكل الناس، الفرد والمجتمع على سواء وفى ضوء هذه المقاصد الشرعية تتحدد علاقة الأفراد والجماعات، وتنتظم علاقة الفرد بالمجتمع، والحاكم بالمحكوم الرجل والمرأة، العالم والمتعلم، الغنى والفقير، القوى والضعيف، وبعبارة جامعة تنتظم فى ضوئها شبكة العلاقات الاجتماعية لتتوجه حركة المجتمع كله لتحقيق الأهداف الكبرى التى تهدف إليها مقاصد الشريعة وتسعى إلى تحقيقها فى المجتمع.

لقد فشلت القوانين الوضعية فى تحقيق هذه المقاصد فى المجتمعات، وينبغى أن ننبه هنا إلى أن المقاصد الكلية للشريعة إذا

كانت تأخذ الصفة الدينية إلا إنها في حقيقتها وضعت لتحقيق مصالح المجــتمع الإنساني كما سبق أن أشرنا، فهي مقاصد اجتماعية أضفى عــليها الشرع صفة القداسة الدينية بنسبتها إلى الشرع لتستقر قداستها في قــلوب المؤمنين لتصير هدفاً وغاية يحرص الجميع على تحقيقها مــن منطلق إيمانه بالعقيدة الدينية فتكون ممارستها عنواناً على إيمان صاحبها والالتزام بها.

إنـــه لا مــنقذ للبشــرية مــن الاضطراب الذى تعيشه إلا في الاعــتقاد في أوامــر الوحي ونواهيه، والأخذ بها والعمل بمقتضاها، عــلى مستوى الفرد والجماعة وأنظمة الحكم، لقد كثرت التشريعات وتعددت القوانين، ومع ذلك فإن الجرائم في زيادة مطردة كمًا وكيفاً، ومظاهر الفساد تموج بها حركة المجتمع في كل جوانبه، والسبب في ذلك كله يرجع إلى عدم المصداقية التي تستمد منها القوانين هيبتها.

إن الوحي السماوي يستمد هيبته من نزاهة مصدره، ويكتسب ثقــة المؤمــن من يقين المؤمن واعتقاده بعدالة المصدر وقداسته عن الغــرض والهــوى، إن إيمــان المسلم واعتقاده في ربه ينعكس في ســلوكه الــتزاماً بأوامر الله ونواهيه، إن العقيدة الصحيحة هي التي تخــلق في المؤمــنين نوعاً من الرقابة الذاتية على المرء في سلوكه والــتزامه، فيكون هو رقيباً بنفسه على نفسه حين يغيب عنه الرقباء تحقيقــاً لمعنى الإحسان الذى أشار إليه الرسول فيالحديث الصحيح حين قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"

[رواه الخمسة إلا البخارى] وفى مثل هذا المستوى، تتجسد مسئولية المؤمن عن ضبط سلوكه وحياته كلها بضوابط الشرع أمراً ونهياً، فلا يحتاج إلى رقابة خارجية، وفى هذا المستوى أيضاً تتجسد مسئولية المؤمن عن نفسه، وعن مجتمعه، إن ضوابط المجتمع وأهدافه تتحقق كلها فى حراسة هذه العقيدة الراسخة فى القلب المؤمن بها، وتتجاوز هذه الضوابط دائرة الجائز والممكن اجتماعياً لتأخذ حكم الحلال والحرام دينياً لارتباطها بهذه العقيدة، ولذلك نجد الرسول (ﷺ) يربط هذه العلاقات الإنسانية بضوابطها الشرعية ويجعلها دليلاً على الإيمان وجوداً وعدما، وكم من الأحاديث النبوية التى تجسد لنا هذا المعنى وتربطه بالإيمان ربطاً محكماً على مستوى علاقات الأفراد والجماعات قال (ﷺ) : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده [رواه الترمذى والنسائى]. وقال : لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث .. وخيرهما الذى يبدأ السلام . [أخرجه البخارى].

والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن. قيل من هو يا رسول الله؟ قال من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم.

من كان يؤمن الله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره. [أخرجه البخارى ومسلم].

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. [رواه الخمسة إلا أبا داود].

لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ... الحديث [رواه البخارى ، ومسلم] .

ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا. [رواه الترمذى وأحمد].

من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً [رواه أبو داود]

إماطة الأذى عن الطريق صدقة. [رواه مسلم].

من غشنا فليس منا. [رواه مسلم والترمذى وأبو داود]

عدلت شهادة الزور الشرك بالله. [رواه أحمد والترمذى وأبو داود].

لن يدخل الجنة عاق لوالديه.

لن يدخل الجنة قاطع رحم . [أخرجه الخارى].

الكلمة الطيبة صدقة.

لا إيمان لمن لا أمانة له. ولا دين لمن لا عهد له. [رواه أحمد].

أرأيت كيف ربط الرسول (ﷺ) هذا المستوى الراقى من المعاملات بأصل العقيدة وهو الإيمان.

إن إيمـــان المرء بهذا المستوى من العلاقات الإنسانية الراقية يســـتمد قداســـته من سمو الاعتقاد وقوة اليقين بالله، من امتلاء القلب خشـــية لله ورسوله، من نور الإيمان الذى أضاء حياة المؤمن بهدى الـــوحى فانعكس على المجتمع كله بهذه العلاقات الإنسانية. دون أن يفرضها قانون أو يشرعها سلطان أو يحرسها سيف السلطان، بل إن حارسها الوحيد هى عقيدة المؤمن فى الله ورسوله.

وعـــلى مستوى الحكم ورعاية المجتمع. نجد نصوص الوحى تضـــىء للإنســـان طـــريق العـــدل الذى به تستقر الممالك وتزدهر الحضارات وتنضبط حركة المجتمع قال تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

﴿فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿وَلا يَجْرِمَـــنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [المائدة: ٨].

﴿يَـــا دَاوُدُ إِنَّـــا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ [ص: ٢٦].

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق : ٢].

﴿وَلا تَكْــتُمُوا الشَّــهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

﴿ وَلْــتَكُنْ مِــنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران : ١٠٤].

وقال (ﷺ) : "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر". قالها ثلاثا. قالوا بلى يا رسول الله . قال "الإشراك بالله. وعقوق الوالدين. وكان متكئاً فجلس ثم قال: الا وقول الزور. ألا وشهادة الزور". وما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت . وقال (ﷺ) :

أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر. [رواه الترمذى].

وقــال فى خطــبة الوداع : إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم. [رواه ابن ماجه]

وعلى مستوى بناء الأسرة المسلمة.

نجــد قوله (ﷺ) : إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير.

خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى [رواه ابن ماجه].

خياركم خياركم لنسائهم [رواه الترمذى]

تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس.

تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك. [رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى].

لا يخطب الرجل على خطبة أخيه. [رواه البخارى ومسلم]

ونجد قوله تعالى : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ١٩].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء : ٣٥].

هذه نماذج قليلة امتلأت بها كتب السنة النبوية شرحاً وتوضيحاً لما جاء فى القرآن الكريم من ضوابط لحركة المجتمع المسلم الذى يعيش فى نور من هدى النبوة وكلها تتعلق بتنظيم العلاقات الاجتماعية على مستوى الفرد والجماعة لتتحقق بها مصالح الأمة وتدفع عنها مضارها، يلتزم بها المسلم من منطلق إيمانه بالله فيكون المؤمن الفرد هو المسئول عن تطبيقها وهو الحارس عليها أمام نفسه وأمام الله، ولا يحتاج فى ذلك إلى رقيب من خارج نفسه لأنه الأمين عليها.

وهذا الاعتقاد هو الذى يعطى لهذه الضوابط قيمتها ومكانتها، وإذا لم يكن للقانون الذى يحكم المجتمع رصيد عقائدى فى القلب فلا تكون له هيبة ولا ثقة فيه. وهذا هو الفارق الأساسى بين القوانين

الوضعية والأوامر الإلهية، لأن كل قانون يستمد هيبته من مكانة واضعه وصاحبه، ولعل ما يعيشه المجتمع المعاصر من فساد واضطراب يرجع فى الكثير من جوانبه إلى خلل القوانين التى تحكم المجتمع.

إن مسئولية المسلم عن أوامر الوحى ذات شقين يتمثل الشق الأول منهما فى كون الإنسان مطالب أولاً بتطبيقها على نفسه وتنفيذ ما جاء فيها، ومطالب ثانياً بحماية هذه الأوامر وحراستها من العبث بها، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، ومن رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان وفى رواية وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل. [رواه مسلم فى كتاب الإيمان]

وتستمد مسئولية الإنسان عن هذين المستويين قوتها عن مسئوليته من قوة الاعتقاد ويقين الإيمان، فتصونها قداسة العقيدة عن العبث بها أو الإهمال فيها أو التفريط فى تنفيذها، وإذا تطرق الخلل أو الإهمال إلى هذه المبادئ فإن ذلك ينال من صحيح الاعتقاد وكمال الإيمان.

.وهذا ما تفتقده دساتير البشر وقوانين الاجتماع.

إن شبكة العلاقات الاجتماعية لو تأسست على هذه المبادئ العقائدية فإنها تجعل من المجتمع كله أفراداً وجماعات حراساً على

هـذه المـبادئ، فليس هناك طرف مسئول وأخر غير مسئول، فالكل راع والكل مسئول، وكل حسب طاقته، فتشيع المسئولية فى المجتمع كله لأن الكل فى سفينة واحدة كما شبه الرسول (ﷺ) فى قوله: مثل القـائم عـلى حـدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصـاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم. فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً. وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً.

وقـال تعـالى: ﴿وَاتَّقُـوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الانفعال : ٢٥].

ومن الملاحظ فى الآية الكريمة والحديث النبوى أن المسئولية الاجتماعية ليست خاصة بطرف دون آخر، ولا بفرد دون فرد. وإنما هى مسئولية جماعية لأن السفينة واحدة، فإن غرقت غرقت بكل من فيهـا وإن نجـت فإنها تنجو بكل من فيها. وتربية الإحساس بروح الجماعـة والمسـئولية عـنها لا تـنهض بها الدساتير ولا القوانين الوضـعية، وإنمـا تـتولد وتنمو فى النفوس من قوة الاعتقاد ونور اليقين.

(٩)

الوحى حاجة نفسية

لاشك أن التوازن النفسى من أهم السمات التى تميز الشخصية السوية فى السلوك وفى التفكير، والتوازن النفسى مظهر إنسانى يعمل على إبرازه والتحلى به عاملان مهمان جداً.

الأول : الاستقرار والأمان والسكينة. وهى علامات ومظاهر خارجية يلاحظها الناس على الشخص الذى يتميز بهذا التوازن النفسى، وتنعكس هذه المظاهر النفسية على سلوك الشخص وفى حديثه وتفاعله مع الآخرين، وطريقة كلامه. حتى إنك بمجرد أن ترى شخصاً موصوفاً بهذه الصفات وتبدو عليه هذه المظاهر تضفى عليه هذه الصفة "الهدوء النفسى" أو "التوازن النفسى".

أما العامل الثانى : فهو الاطمئنان القلبى. الذى يظهر أثره فى منهج التفكير وطرائق التعبير عما يدور فى القلب من أفكار، وإذا كان العامل الأول يظهر أثره فى السلوك الشخصى فإن العامل الثانى ينعكس أثره على العقل والإدراك، بحيث يتصل العامل الأول بالنفس الإنسانية وآثارها على الجسم الإنسانى بينما يتصل العامل الثانى بالعقل وطرائق تفكيره فى تحصيل اليقين الذى ينبنى عليه اطمئنان

القلب ويقينه، وهذان العاملان من أهم عوامل تحقيق السعادة للإنسان.

ذلك أن النفس الإنسانية تتعدد رغائبها وتتنوع، وتختلف مراداتها وقد تتعارض، فهي لا تشبع أبداً من تحصيل الرغبات وتحقيق المرادات، وكلما حصلت على رغبة تخنطها إلى غيرها وهكذا لأن هذا من تمام كونها نفساً، حتى إن بعض العلماء عرف النفس بأنها الحركة سواء نطقت نَفْسا أو نَفَسا بالسكون أو بالفتح. وذلك باعتبار أن الحركة من لوازم النفس ومن خصائصها. فإذا ما تسلطت حركة النفس على صاحبها واستخدمته في تحقيق رغباتها التي لا تنتهي فإن حياته تنقلب إلى شقاء أبدى، فيسعى لاهثاً في تحصيل مطالبها. وهي التي لا تشبع أبداً، ولكي تستقر حياة الإنسان ويتحقق لنفسه التوازن المطلوب ليشعر بالسعادة، لابد له من كبح جماح هذه الرغبات. ليس بإماتتها أو محاربتها وقتلها. وإنما بترشيدها وترويض النفس على الإعتدال في مطالبها، وهذا لا يتحقق للمرء إلا بالسيطرة على نفسه وأن يملك زمامها، والمدخل الطبيعي إلى حسن قيادة النفس هو الاعتقاد بما جاء به الوحي، والإيمان به والعمل بمقتضاه، فتكون أوامر الشرع ونواهيه هي الغذاء الروحي والرياضة النفسية التي تضبط حركة النفس وتقوم المعوج منها، هي الماء العذب الذي يطفئ حرارة الشهوة ويكبح جماحها، هي البرد الذي ينزل بالقلب فيبعث فيه الأمان والاطمئنان والهدوء والسكينة،

وكم لأرباب الرياضات في مثل هذه المواقف من تجارب وأهوال مع النفس وأسرارها، وكم سهروا الليالي في تهذيب رغائبها وترويض جموحها، ولم تصح لهم النفس من عللها ولم تستقم من أعوجاجها إلا بتعاليم الوحي. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

وما زالت الدراسات قاصرة عن اكتشاف خصائص النفس وسر غورها والوقوف على كل صفاتها الذاتية، وكلام علماء النفس حولها يدور كله حول ما ظهر لهم منها، حول مظاهرها السلوكية، حول أحوالها وعاداتها، أمراضها الظاهرة فقط، ولكن هناك مناطق مظلمة في النفس الإنسانية لا تستطيع اكتشافها ولا سر أغوارها ولا يحسها إلا صاحبها فقط، وقد لا يحسن المرء التعبير عنها ولا إقامة الدليل على وجودها. رغم وجدانه لها وخضوعه لآثارها. ولعل من هنا كان اهتمام القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه المناطق المغلقة أمام العقل البشري في النفس الإنسانية والتي سماها القرآن آيات وأشار إليها أكثر من مرة. قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات : ٢٠، ٢١]. وفي النفس آيات أيضاً. وقال أيضاً: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]. ونلاحظ في الآيتين أن النفس جاءت معطوفة على آيات

الأرض وآيـــات الآفاق. لتفيد معنى التسوية والمعادلة بين الآيات في الجانبين فكأن آيات النفس تعادل في دقتها وعظمتها آيات الآفاق في كثرتها وتنوعها كما تعادل آيات الأرض في نفعها وضررها.

إن اكتشاف هذه المناطق المظلمة في النفس الإنسانية واستثارة كوامـــنها لا يـــتأتى إلا بعطـــاء الوحي. الذي يعلم خفاياها ويعرف أمراضـــها ودواءهـــا، إنهـــا العالم الأصغر الذي أقسم به القرآن في مواجهـــة العـــالم الأكـــبر. قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس ٧ : ١٠].

إن الـــنفس الإنســـانية بحاجة إلى الوحي لكي يأخذ بيدها الى شـــاطئ النجاة مستعينة في ذلك بيقين **الاعتقاد وسلامة** الإرادة ونبل المقصـــد وتستمد عونها من الله حتى لا تلعب بها عواصف الأهواء. وقـــال (ﷺ): "اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك، وقـــال بعض الحكماء نفسك إذا لم تجبرها على فعل الخير والطاعة جـــبرتك هي على فعل الشر والمعصية، ولذلك كانت الاستعانة بالله عـــلى قهـــر الـــنفس دعاء نتقرب به إلى الله في فاتحة الكتاب وفي الصلوات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥].

وينـــبغي أن نعـــلم أن النفس الإنسانية لا تنتمي في أصلها إلى عـــالم الشـــهادة حتى تستطيع أن تتعامل معها بمنطق العلم الحسي،

ولكنها تنتمي إلى عالم الغيب كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص : ٧١، ٧٢].

وقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس ٧: ١٠]. ولما كانت النفس تنتمي إلى هذا العالم الغيبي كانت عللها وأمراضها غائبة عن كثير من ذوي العقول، خاصة أصحاب هذه العقول التي تعودت على المحسوسات ولم تتجاوزها إلى غيرها، وبالتالي فإن علاج هذه الأمراض النفسية قد غاب عنهم في معظم الأحيان، وذلك لغيابهم عن فهم حقيقة النفس الإنسانية، ودعك من الذين يعالجون الأعراض المرضية وظواهرها ثم يتوهمون أنهم بذلك قد عالجوا أمراض النفس.... لا... إن هناك فارقاً كبيراً بين علاج الأعراض وعلاج الأمراض ذاتها. إن النفس الإنسانية إحدى مواطن التحدي والإعجاز في الكون كله. ولقد أقسم القرآن بها لأهميتها ولما فيها من مواطن الإعجاز ودقة الصنعة..

والسكينة والاطمئنان من علامات النفس الصحيحة السليمة من الأمراض. وذلك كله لا يتأتى لها إلا بالتعرف على عوامل الاطمئنان والسكينة من هدى الوحي ومن نور النبوة وتستمد النفس علاجها

لأمراضــها مــن هــذا النور الذى هو فى حقيقة الأمر شفاء لما فى الصــدور. كما قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقــال ســبحانه: ﴿فيه شفَاءٌ للنَّاس﴾ [النحل: ٦٩]. ﴿يَا أَيُّهَا الــنَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ودائمــاً مــا ينــبه القرآن الكريم إلى الأخذ بمبدأ الوقاية من المرض قبل نزول العلة بالنفس فيستحكم الداء ويستعصى الدواء ومن أهــم هذه الوسائل الواقية اللجوء إلى الله تعالى والاستعانة به والإنابة إليــه وحسن التوكل عليه فقد كان من دعائه (ﷺ) اللهم لا تكلنى إلى نفســى طــرفة عين ولا أقل من ذلك كما كان (ﷺ) يستعيذ بالله من شــرور الــنفس فى قوله : "نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالــنا لأن قوة الشهوة وغلبة الهوى لا يعين على التغلب عليها إلا الله، فهو المعين وحده على هوى النفس وقهرها وبذكره وحده تطمئن القــلوب وتسكن النفوس، فتعرف النفوس أنه لا ملجأ لها إلا إليه ولا عون لها إلا به.

كمــا ينبغى أن تعلم أن المجتمع كله فى حاجة ضرورية إلى الوحى ليقوده إلى التعرف على غاياته الكبرى ومقاصده السامية التى تتمــثل فى علاقة الإنسان بخالقه، علاقة المخلوق بالخالق، وهذا أمر

مقصـــود مـــن الشارع، أن يتعرف الإنسان على أوامر الله ونواهيه ليســـتطيع أن يحقق بذلك عبوديته لله وحده، ليعرف كيف يتخلص من العـــبودية لغـــير الله، لـــيعرف أن كل بنى آدم أمام الله سواء، تحقيقاً لمعـــنى العـــبودية المطلقـــة للخـــالق، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِـــي الـــرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم آية (٩٣)] ليعرف كيف يـــتحقق فـــى ســـلوكه وعلاقاتـــه مع الله ومع الناس بمعانى التوحيد الخـــالص لله ربوبية وألوهية، فيستمد عزته من عزة خالقه، وسلطانه مـــن قـــوة إيمانـــه بخالقـــه، فيتضاءل أمامه كل سلطان وعلى قدر اعتصـــامه بهذه المعانى فإن الله يخلق هيبته فى قلوب الناس، وعلى قـــدر خوفـــه من الله يخافه الناس وعلى قدر خشيته لله يخشاه الناس، وهـــذا هو حبل الله المتين الذى قصد الشارع الاعتصام به والالتفاف حولـــه فتتحد الأهواء وتتوحد المقاصد والغايات ويكون هوى الناس تـــبعاً لمـــا جـــاء به الرسول، وهذا التوحد يعود نفعه على المجتمع بالدرجة الأولى حتى وأن بدا فى ظاهره أنه من العبادات الدينية، فإنه يـــنعكس على سلوك الأفراد سكينة فى النفس وأمانا فى القلب ومودة وتراحماً بين الناس.

(١٠)

الوحي حاجة عقلية

لا ريب أن العقل قد وقف على كثير من المعارف المتعلقة بعالم الشهادة وكشف العلم عن كثير من أسرار هذا الكون وقوانينه وأصبح عالم الشهادة أمام العقل أشبه بالصفحة المقروءة التى يتعامل معها العقل فيفهم منها على قدر استطاعته ولكى يتكامل الموقف المعرفى أمام العقل فإن ذلك لا يتم له إلا إذا عرف العقل الإجابة اليقينية عن الأسئلة المطروحة عليه منذ الأزل. وهى كلها متعلقة بهذا الكون بدءًا ونهاية. من أين . وإلى أين. ولماذا. وهذه المعرفة اليقينية لا سبيل للعلم إليها لأنها ليست داخلة فى اختصاص العلم التجريبى كما أنه لا يملك الإجابة عليها وقد جرب العقل الإجابات المطروحة حول هذه الأسئلة خلال موقف المدارس الفلسفية المختلفة فلم يجد فيها أمنا ولا يقينا بل زادته حيرة وشكوكاً، فمن قائل بالعبثية المطلقة فى تفسيره للوجود بعامة.

ومن قائل بالصدفة.

ومن قائل بالطبيعة والدهر. وكلها إجابات لم تشف للعقل علة ولم ترو للسائل غلة.

فكلها تنفى الغاية والحكمة من وجود هذا العالم ولا ترى فيه إلا العبثية المطلقة كما قال الشاعر الجاهلى قديماً.

رأيــت المنايا خبط عشواء من تصب تمته

ومـــن تخـــطئ يعمـــر فيهـــرم

وقالوا ما هى إلا أرحام تدفع، وقبور تبلع وما يهلكنا إلا الدهر. وكما عبر القرآن الكريم عن موقفهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾[الجاثية:٢٤].

ولقد ترتب على هذا الموقف الرافض للغاية والحكمة الالهية من الوجود والقائل بالعبثية أن فتش هؤلاء فيما تحت أيديهم من أقوال فلم يجدوا للوجود معنى ولا للحياة قيمة، وانعكس هذا التفسير على سلوكهم رفضاً للحياة بأكملها، وهرباً من الوجود الذى لا معنى له، فكان الانتحار هو المخلص لهم من هذا الوجود العبثى .

والعقل السليم يرفض هذا التفسير ويأباه، وليس ذلك من باب المصادرة على آراء الآخرين. وليس من باب وضع العربة أمام الحصان كما يسميها البعض، ولكن القضية أمامنا أشبه بالكتاب المفتوح، فمن أراد أن يقرأ بعقل واع خال من الشبهات فعليه أن يطالع صفحة الكون، وأن يتأمل فى كل جزئية منه بدءًا من نفسه هو ومن جسمه هو، ومن حبة القمح التى يزرعها ويأكلها، فإنه يجد لا محالة أن كل شىء فى الكون موظفاً لأداء غاية مطلوبة ولحكمة

مقصودة للخالق سبحانه، وكل فرد من أفراد العالم يتناغم مع غيره فى تناسق عجيب لأداء وظيفة كلية للكون بأسره، فالجماد بعناصره الأساسية موظف لخدمة النبات.

والنبات بما يحتويه من مواد غذائية موظف لخدمة الحيوان.

والحيوان موظف لخدمة الإنسان.

وكل فرد من أفراد هذه العوالم المتنوعة. تجد كل جزئية فيه تتكامل مع غيرها لأداء وظيفته الخاصة به بحيث تجد أفراد العالم كلها تتعاون فيما بينها وتتكامل لأداء وظيفة مقصودة وتحقيق غاية مطلوبة.

وهذا التكامل ليس قاصرا على ما نشاهده فى عالمنا الأرضى فقط، وإنما هو أشد ما يكون ظهورا فى عالم الأفلاك، ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ومن أراد شيئاً من المعرفة بعلم الفلك وما يطالعنا به من آيات باهرة فى دقة النظام الكونى فليراجع ما اكتشفه العلماء من ذلك مما يبهر العقول [1]. علم ذلك من علمه وجهله من جهله والأمثلة الدالة على

(١) راجع فى ذلك الله يتجلى فى عصر العلم، الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان، وكتابات الدكتور زغلول النجار ومحاضراته الرائعة فى التلفاز حول هذه القضية.

ذلك تخرج عن الحصر.

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الخالق

فإن عين الإنسان لا تقع على شىء فيما حوله إلا هو ناطق بما لله فيه من حكمة مرعية وغاية مقصودة ولقد عبر القدماء من مفكرى الإسلام عن هذا الأمر الأهم فى عبارات واضحة وأدلة برهانية، فلقد أشار إلى ذلك أبو الحسن الأشعرى فى رسالته إلى أهل الثغر. وجعل جسم الإنسان نفسه آية دالة على ما لله من قصد وغاية فى خلق أعضائه على هذا النحو الذى تتعاون فيه وتتكامل لأداء وظيفة الإنسان، فخلق العين فى مقدمة الرأس وليس فى المؤخرة، وخلق السمع والشم والذوق التى هى وسائل الإدراك على هذا النحو التكاملى مما يدل على أن هناك فاعلاً حكيماً وأن له غاية وقصداً فيما خلق، مما ينفى القول بالعبث أو المصادفة، قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

ولقد أشار ابن رشد إلى هذا المعنى وسماه دليل العناية واستدل على ذلك بآيات الذكر الحكيم، ولا شك أن العناية بالمخلوق تتضمن القصد والحكمة للخالق مما ينتفى معه القول بالعبثية إن العقل لم يجد فى مذاهب الفلاسفة برد اليقين الذى أشار إليه أبو حامد الغزالى بل زادته آراؤهم حيرة واضطرابا، هذا من جانب الفلسفة والفلاسفة.

أمـــا فى جـــانب العلم واكتشافات العلماء فلا شك أن الإنسان تتمـــلكه الدهشـــة ويســـتولى عليه العجب لما قطعه العلم من أشواط ومسافات كبيرة فى اكتشاف مجاهل هذا الكون، فكم من قوانين كونية اكتشـــفها العـــلماء. وكم من الظواهر الطبيعية أدرك العلماء أسبابها والعلاقات المتبادلة بينها وبين أسبابها.

فعـــرفوا كيف يوظفون الكون ويسخرون هذه القوانين لصالح البشـــرية أحيانـــاً، ولدمارها أحياناً أخرى، ولا شك أن ذلك كله فى ميـــزان العـــلم والعلماء، وكلما ازداد العلماء اكتشافا لغوامض الكون ودقائقه يزداد علمهم بمدى الجهل والغموض الذى يحيط بهم فى هذا الكـــون، ولا شـــك أن كـــل كشف علمي جديد يعتبر إضافة لرصيد المعرفة الإنسانية بالكون وفى نفس الوقت يعتبر كشفاً عما كان يجهله العقل، وهكذا تتوالى الكشوف العلمية التى تحمل معها مدى المساحة الشاسعة التى يجهلها العقل ويعرف منها كل جديد.

ومع كثرة هذه الكشوف وأهميتها بالنسبة لحياة الإنسان إلا أنها فى مجموعهـــا تتعـــلق بظواهـــر الكون وتفسير علاقات أفراده، قال تعـــالى: ﴿يَعْـــلَمُونَ ظَاهِـــرًا مِـــنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِـــلُونَ﴾ [الروم : ٧]. ومع كثر هذه الكشوف إلا أنها لم تفسر لنا لغز الحياة ولا سر الوجود وهذا ضلع المثلث الذى لا يكتمل الموقف المعـــرفى للعقل إلا به والكشف عنه والاعتقاد فيه. إن العلم مع كثرة كشـــوفه لم يحمل لنا إجابة شافية للعقل من حيرته حول هذه الأسئلة

مــن أين. إلى أين. لماذا؟ والذين اكتفوا بالموقف الفلسفى المادى فى تفســيرهم للوجود ورفضوا الإصغاء لصوت الوحى لم يجدوا ما لهم بديــلاً عــنه إلا القول بالعبثية . ودخلوا بذلك فى نفق الإلحاد المظلم الــذى كــانت نهايــته إمــا الانتحار وإما الارتماء فى أودية الحيرة والضلال ، وهم بذلك لم ينصروا حقاً ولم ينصفوا عقلاً.

إن ســر الوجود لم يكشف عنه العلم لأن ذلك ليس من وظيفة العلم ولا من مهمة العلماء، لأن مهمة العلم هى الكشف عن القوانين الــتى تحكم علاقة الظواهر الطبيعية وكيف يفيد الإنسان منها، كيف يسخرها لصالحه.

إن مهمــة العلم وصف الظواهر بحيث يبين لنا ما هى. وكيف حدثــت الظاهرة وأنه يبين لنا الإجابة عن السؤال ما هذا؟ ولكن ليس لدى العلم إجابة عن السؤال لماذا.... لماذا كان هذا الوجود أصلاً... ولمــاذا كان هذا الوجود على هذه الكيفية دون غيرها، إن العلم يضع أمــام الإنسان مشاهدات للوقائع التى يتعامل معها فى كشوفه العلمية، ولكــنه لا يحمل الغاية منها، فالإنسان يأكل الطعام. ويعرف الطبيب كيــف يــتحول الطعام فى جسم الإنسان إلى طاقة عن طريق الهضم والتمثيل الغذائى خلال الجهاز الهضمى ودوره المعروف للأطباء فى هــذه العمــلية، ولكن لا يعرف الطبيب لماذا تتحول هذه الطاقة فى العيــن إلى قوة باصرة، ولا يعرف لماذا تتحول هذه الطاقة فى الأذن إلى قوة سامعة، ولا لماذا تتحول هذه الطاقة فى اليد إلى قوة باطشة،

ولا لماذا تتحول في الإنسان إلى قوة مدركة عاقلة، ولم يتساءل عنها الطبيب لأنها أصلاً ليست من مهمة العلم، ولو سألت طبيباً لم تتوزع الأغذية فى بدن الإنسان إلى طاقة تؤدى دائماً إلى وظائف محددة فى كل عضو من أعضاء الجسم وأن هذه الوظائف لا تتخلف أبداً إلا لعلة طارئة؟ أو كيف تنظم هذه الطاقة وظيفتها في كل كائن حي. حتى يطير بها الطير فى السماء ويسبح بها السمك فى الماء، ويعيش بها الإنسان على وجه الأرض لكانت إجابة الطبيب عن هذه الأسئلة إن ذلك ليس داخلاً فى مهمة العلم، إن العلم يصف ما يحدث وليس من مهمة العالم أن يتكلم عن لماذا يحدث؟

إن معرفة العلل الغائية لهذا الوجود سر لا يكشف عنه إلا الوحى، لأن العلم كما قلنا يتكلم عما يحدث ولا يعنيه التحدث عن العلة الغائية التى هى إجابة عن السؤال... لماذا؟ ولا راحة للعقل إلا باكتمال الموقف المعرفى لديه، وإذا كان العلم قد كشف له عن كثير من دقائق هذا الكون وأسراره فيأتى دور الوحى ليقول للعقل ما عجز عنه العلم، ويعرفه بأسباب هذا الوجود، ويكشف له عن غاياته وأهدافه. حتى لا يقع العقل فى أودية الحيرة وضلال العبثية.

وصدق الله العظيم ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم : ٧].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان : ٣٨، ٣٩].

إن الوحى هو الذى يقدم للعقل تفسيرا مقنعا لعلة الوجود وغايته، والوحى هو الذى يقول للعقل إن هناك حياة آخرة بعد الحياة الدنيا يكتمل بها حكمة الوجود الإنسانى، يكتمل بها الموقف المعرفى للعقل، يكتمل بها منظومة الوجود كله فى ضوء من العدل الإلهى الذى به يكون للوجود معنى وللأخلاق أثراً فى سلوك الإنسان.

إن الوجود الإنسانى لو كان قاصرا على هذه الحياة فقط لكان وجود الإنسان فيها هو البؤس بعينه ولما كان للوجود معنى ولا للحياة قيمة، فحياة الإنسان تحيط به من كل جانب بما يدعو إلى الإشفاق، فما أكثر الآلام والأمراض، وما أكثر المظالم والطغيان، وما أكثر عوامل القهر والتسلط بين بنى الإنسان، فالقوى متسلط على الضعيف، والغنى متسلط على الفقير والحاكم متسلط على المحكوم، وكم من مظاهر الفساد والإفساد فإذا لم يكن هناك حياة آخرة يقتص فيها للمظلوم من الظالم وللضعيف من القوى وللشعوب من حكامها لكان الوجود كله عبثاً. وهذا ما يرفضه العقل وينفيه النقل. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون : ١١٥].

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[الأنبياء:٤٧].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

إن قيمة الحياة الإنسانية لا يكون لها معنى إلا فى الاعتقاد باليوم الآخر كضرورة دينية وأخلاقية معاً، عبر عنها القرآن الكريم فى أكثر من آية. وهذا الأمر ليس من مهمة العلم الكشف عنه، وليس من اختصاص العلماء البحث فيه، وإنما هو نور الوحى وهداية الأنبياء، لكى يؤمن المرء بعدالة الخالق بين عباده، والتى عبر عنها كثير من الأحاديث الصحيحة حتى إن الله يقتص للشاة الظلفاء من الشاة القرناء. وإذا كان ميزان العدالة قد اهتز فى يد البشر فى حياتهم الدنيا فإنه غير قابل للخلل فى يد الخالق سبحانه، وكل هذه المعارف الدينية لا سبيل إليها إلا بطريق الوحى. فتسكن النفوس من حيرتها وتطمئن القلوب. حيث يجد المظلوم والضعيف والفقير ما وعدهم ربهم حقاً فى الآخرة كما آمن بمصداقية الوحى فيما أمر به ونهى عنه فى الدنيا.

(١١)

الوحى حاجة إنسانية

من المفيد فى هذه المرحلة من البحث أن نوضح هذه القضية التى تحوم حولها بعض الشبهات من الذين يرون أن العلم قد أغنانا عن الوحى وأنه حل لنا المشكلات التى عانت منها البشرية قديماً والتى جعلتها تفكر فى الاستعانة بالوحى لحل هذه المشكلات، أما الآن وقد حمل لنا العلم حلول هذه المشكلات فلم تعد البشرية فى حاجة إلى هذا اللون من الاعتقاد فى الغيبيات.. هكذا يقولون.

وقد ينادى بعضهم فى الاستدلال على صحة موقفه هذا فيحاول أن يخضع النصوص القرآنية لما يسميه بنقد النص أو تأويل النص أو إعادة قراءة النص قراءة عصرية أو إعادة التفسير فى ضوء الواقع أو ... أو ... الخ ما يقولون.

ولو خاطبنا هؤلاء بلغتهم لقلنا لهم إن العلم لا ينكر الوحى ولا يتضمن العلم نفياً للوحى ولا إنكارا للنبوة. بل على العكس قد فتح العلم بكشوفه الرائعة عن حقائق كانت فى طى الغيب قربت للعقل إدراك ما كان يظنه مستحيلاً أو غير مقبول فى تصوره.

وقضية الوحى فى أساسها لا يملك العقل برهاناً على إنكارها، فهى فى أصل ثبوتها ليست مما يحيله العقل ولكنها ليست مما جرت بـــه العـــادة بيـــن العقلاء، وهذا أمر لازم لها، فهى ليست من قبيل العـــادات ولا الأعراف التى تعود الناس على معايشتها حتى يتقبلوها بســـهولة، ومـــن هـــنا كانت محل إنكار من الكافرين بقضية النبوة، والســـبب الرئيســـى فى هذا الإنكار هو عدم التعود على مشاهدة هذه الحالـــة، وهـــناك فارق كبير بين المستحيل العقلى والمستحيل عادة. ومن الخطأ منهجياً أن يحمل الناس المستحيل العادى على المستحيل العقـــلى، وهـــذا يفســـر لنا موقف المشركين من الرسل جميعاً حين دعوهـــم إلى الإيمـــان بهذا الوحى فقالوا للرسول : ﴿مَا أَنتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ﴾ [يس : ١٥].

وقـــالوا : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم : ١٠].

وقـــالوا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ، لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٦، ٧].

وقـــال بعضـــهم لبعض : ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤].

وقالوا : ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وقـــالوا ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقالوا غير ذلك : كثير، وعند تأملنا هذه الاعتراضات الواردة علـــى الرســـل نجد سببها هو مخالفة هذا الأمر لما تعودوه وتعارفوا علـــيه مـــن ألوان المعرفة العادية ، ولما كانت الكهانة والسحر من الأمور الشائعة بينهم فقد نسبوا الوحى إلى هذه الظاهرة فقالوا إن هذا إلا ســـحر يؤثـــر ، وقالوا للرسول يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون .

وفـــرعون – قديمـــا – لـــم يجد عنده ما يعارض به نبى الله موسي إلا اتهامه بالسحر، ولذلك جمع له كبار قومه فى فنون السحر. ولما وقفوا على حقيقة ما مع موسى عليه السلام أدركوا أنه ليس من جنس بضاعتهم، ولهذا كانوا أول من آمن بربب العالمين رب موسى وهـــارون، وقـــال فـــرعون لهم ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَـــوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِـــينَ﴾ [الشعراء: ٤٩]. إلى غير ذلك من وسائل التهديد بالعذاب والهلاك فما كان جوابهم إلا أن قالوا لفرعون : ﴿اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَـــا تَقْضِـــي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه : ٧٢، ٧٣].

وعلـــي هـــذا النحو كانت قضية الرسل مع أقوامهم . فالنبوة أصلاً أمر غير عادى.

والوحي كوسيلة معرفية غيبية أمر غير عادى، ودعوى الأنبياء أنهم يخاطبون بوحي من السماء أمر غير عادى، ودلائل صدق الأنبياء من الآيات والمعجزات أمر غير عادى، ولكن السؤال الضرورى هنا هل لأن هذه الأمور كلها فوق عادة البشر تكون بالضرورة مما يحكم العقل باستحالتها. الجواب هنا بالقطع لا. فإن العقل لا يحكم باستحالة هذه الأشياء. ومن يملك برهاناً قاطعاً على القول بأن هذه الأمور مستحيلة عقلاً فليظهره.

إن كل ما يدعيه الرافضون للوحي أنهم لا يعرفون دليلاً عليه ولا يملكون برهاناً على صحته.. وقد يضيفون إلى ذلك دعواهم أن هذه القضية لا تخضع للتجربة الحسية وبالتالى فهى ليست قابلة للصدق.

وهذا أقصى ما ينبهون إليه من دعاوى الإنكار. ولكن من قال إن عدم معرفتهم بدليل نزول الوحي يعتبر دليلاً على عدم وجوده؟

من قال إن عدم وجدان الدليل دليل على عدم وجود الدليل فى نفسه؟

وهل إذا جهل بعض الناس دليل نسبة كتاب المنطق لأرسطو أو لم يعلم أصلاً بوجود أرسطو كفيلسوف هل عدم علمه بوجود أرسطو يلغى وجوده فى نفسه ويعتبر ذلك دليلاً كافياً على صحة قوله.

ثانيـــاً : من الذى قال إن التجربة هى الوسيلة الوحيدة لإثبات صـــحة الـــرأى أو خطـــئه . إن هناك كثيراً من المعارف اليقينية لا تخضع فى ذاتها للتجربة ولا يملك أحد إنكارها.

نعـــم إن التجربة مسلك علمى صحيح لا يشك أحد فى نتائجها إذا اســـتوفت شروطها العلمية، لكن التجربة ذاتها لها عالمها الخاص الـــذى يخضـــع لها وتعمل فى دائرته وحدوده، لكن التجربة لا تحمل معها دليلا على أن كل ما لم يجرب من المعارف لا يكون صحيحاً، إنها لا تنفى وجود الأشياء التى لم نجربها كما لا تنفى قياس أشياء لم نشاهدها على أشياء شاهدناها تجريبياً. وهذا فى حد ذاته كاف للحكم عـــليه بمـــا شاهدناه فى نظيره ومثيله. وهذا هو القياس العلمى وهو كالـــتجربة المباشـــرة تماماً فى إفادة اليقين، والتجربة لا تعتبر حقيقة علمية لمجرد إننا شاهدناها، والقياس عليها لا يعتبر باطلاً لمجرد أنه قياس.. وقد توصل العلم إلى اكتشاف كثير من الوسائل المعرفية التى قـــربت إلى الأذهان إمكان الوحى عقلاً كوسيلة من وسائل المعرفة، ولعـــل مـــا أورده بعـــض العـــلماء المهتمين بهذه القضية من أمثلة الاخـــتراعات الحديـــثة والكشوف العلمية ما يبرهن على صحة هذه القضية[1].

---

(١) راجع فى هذه الأمثلة : الإسلام يتحدى . وحيدالدين خان ص ١٥٠-١٦٠ حيث نقل أمثلة كثيرة عن الإنسان ذلك المجهول، الله يتجلى فى عصر العلم، العلم فى منظوره الجديد.

فهرس

الناشـــــــر : **دار قباء**

للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج امون

الدور الأول - شقة ٦

المكتبـــــة : ☎ ٦٣٦٢٥٦٢- فاكس / ٦٣٧٤٠٣٨

١٠ شارع كامل صدقى - الفجالة (القاهرة)

المطـــابـــع : ☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

WWW. alinkya.com/debaa

e-mail: qabaa@naseej.com

Kebaa@ajeeb.com

هذا الكتاب

يهتم هذا الكتاب بتوضيح العلاقة بين الوحى والإنسان ، بين الوحى والكون ، بين الوحى والقيم ، بين الوحى وقضايا المجتمع ، هل هى علاقة تناقضية أم هى علاقة تكاملية .

هذا الكتاب قراءة معرفية لدور الوحى فى حياة الإنسان وعلاقاته بالكون والمجتمع ، يستوضح المؤلف خلال هذه القراءة منهج القرآن الكريم فى دفع العقل وإلزامه بضرورة قراءة الكون وما فيه ، قراءة عالم الشهادة باعتباره آية دالة على خالقه ، قراءة الضرورات العقلية الكامنة فى ظواهر هذا الكون ومظاهره ليؤسس على هذه الضرورات العقلية يقينه المعرفى بالخالق وبقدرته وحكمته من جانب ، كما يؤسس عليها أيضاً يقينه المعرفى بالغائية والحكمة النافية للعبثية من جانب آخر .

ومن خلال هذه القراءة يتضح لنا الفارق الكبير بين ما يسميه أوهام الخيال المريض الذى يقول به نفاة الغيب وحقائق اليقين الذى نقرؤه فى منهج القرآن، إن هذا الكتاب تتوحد فيه عناصر الموقف المعرفى لتضع الإنسان فى لقاء مباشر مع مسئوليته أمام باعتباره الذات العارفة ، وباعتباره موضوعاً لـ وباعتباره مسئولا عن تحقيق أهداف وغايات ا المعرفى بكامله . وحين يشعر الإنسان بهذه المـ وأبعادها فإنه بذلك يكون قد بدأ الخطوة الأو تحقيق وظيفة الاستخلاف لعمارة هذا الكون. إن موجز فى عبارته ، دقيق فى معناه ، بعـ هدفه ومرماه .

أحمد غري